وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الجثة المطوقة
الأجداد يزدادون ضراوة

مسرحيتان

تأليف: كاتب ياسين
ترجمة: د. ملكة أبيض

الجثة المطوّقة

الأجداد يزدادون ضراوة

الجثة المطوّقة
الأجداد يزدادون ضراوة

مسرحيتان

تأليف: كاتب ياسين
ترجمة: د. ملكة أبيض

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

صدرت الطبعة الأولى

عن وزارة الثقافة

دمشق - ١٩٦٢م

(سلسلة الأدب الجزائري؛ ٥)

الجثة المطوقة؛ الأجداد يزدادون ضراوة: مسرحيتان / تأليف كاتب ياسين؛ ترجمة ملكة أبيض؛ مراجعة كمال خوري . - ط٢ . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ١٦٠ ص؛ ٢٠ سم.

(سلسلة الأدب الجزائري؛ ٥) صدرت الطبعة الأولى ١٩٦٢

١ - ٨٤٢ جز ي ا س ج ٢ - ٨١٠,٩٩٢٢ ي ا س ج
٣ - العنوان (١) ٤ - العنوان (٢) ٥ - ياسين
٦ - أبيض ٧ - السلسلة

مكتبة الأسد

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم: د ملكة أبيض

إنها مفاجأة كبرى للقارئ العربي أن يرى، خلالَ التباشير الأولى للنهضة الأدبية في وطنه، عملاقاً كبيراً ينتصب على قدميه، ويتقدم ليأخذ مكانه في الصفوف الأولى بقدم ثابتة، جنباً إلى جنب مع الآداب العالمية التي ناضلت طويلاً حتى تبوأت هذا المكان.

وكما عقدت الدهشةُ، منذ سبع سنوات، لسانَ المواطن العربي الساخط على الاستعمار، المتبرِّم بأوضاعه المهترئة، عندما انطلقت ثورة الجزائر المسلَّحة انطلاقَ المعجزات تنتزع أرضها السليبة من مخالب الاستعمار بالدم والسلاح، فوقفَ يرمقها بنظرة حب وإكبار.. هكذا يقف القارئ العربي الآن معقودَ اللسان إذ يرى هذه البقعة من وطنه تُطْلِعُ ثورة فكرية، وأدبية، تواكب الثورة المسلحة، وتعكس أحداثها كصفحة المرآة. بل إنها لتُحاول أيضاً أن تشرح دوافعها، وتحدد سبلها وغاياتها. لتصل بها إلى المستقبل الذي تتطلع إليه.

لقد ظهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية أدب جزائري قويٌّ ناضج، لمعت من خلاله أسماء كبيرة: مولود فرعون، مولود معمري، محمد ديب، مالك حدّاد، كاتب ياسين..

ولكنّ هذا الأدب - أقول ذلك والألم يملأ جوانحي - يتخذ اللغة الفرنسية وسيلة للتعبير. إن أصحابه يجهلون لغتهم الأم.

هذا الأدب يتميز بخصائص بارزة، يطالعك أول ما يطالعك فيه الالتزام.

نحن ملتزمون، كما قال مالك حداد. قد يَشْغَلُ غيرنا عَبَثُ الحياة، وقد يفلسف بعضهم القلق والسأم.. أما نحن - أبناء الجزائر الذين فتحنا عيوننا يوم ٨ أيار على مأساة شعبنا - فلم نستطع أن نحذو حذوهم. لقد اخترنا طريق الثورة الذي اختاره شعبنا. الثورة على الجيش المحتل الذي يركلنا بأقدامه، ويُلقي بآبائنا وأشقائنا صرعى أمام أعيننا.. الثورة على «المعمِّرين» الذين سلبونا أرضنا، واستثمروا كرومنا وبرتقالنا.. الثورة على المرتزقة مديري المعامل والورش الذين يُعملون فينا سياطهم ويعطونا بالمقابل أجراً لا يسد الأفواه الجائعة التي نَعُولُها.

لقد ثرنا على سَلبِنا شخصيتنا.. حتى أصبحنا نرطن بلغة لا يفهمنا فيها آباؤنا وأمهاتنا.. وسلاحُنا في طريق الثورة حَنْجَرَةٌ صافية، وقلمٌ مخلص.

والميزة الثانية التي تطالعك في الأدب الجزائري المعاصر هي الواقعية. وقد تكون هذه الخاصة نتيجة لتلك.

لقد اختار الأدباء الجزائريون جانب الثورة التي يعيش فيها شعبهم، فوقفوا ملياً عندها، وأعملوا حواسَّهم وملاحظتهم فيها، فانطلقت باحثة

منَقّبة، ترى كل جرح، وتسمع كل أنّة وزفرة. وعادوا بذاكرتهم إلى الوراء، إلى أيام صورة الوطن الطعين.. صورة الشعب الأبيّ الذي تملأ صدره الآمال، ويشطُّ به الطريق إليها..

وكاتب ياسين.. كاتب « الجثة المطوقة » و « الأجداد يزدادون ضراوة »، وكاتب «نجمة»، وصاحب عدد من المجموعات الشعرية، والمسرحيات.. هو في رأيي أشدُّ كتاب الجزائر عمقاً وأصالة. وهو أشدهم ارتباطاً بالماضي، يقف عنده كما يقف المسافر في زورق تائه تتقاذفه الرياح والأمواج ذات اليمين وذات الشمال. إنه ينصت للرياح التي تهب على الجزائر. إنه يحكي عن مواطنيه المتخاذلين، عمن أفقدتهم الصدمة صوابهم فجرفتهم إلى لجة الانحلال، عن الخونة والجواسيس.. إنه يتحدث عن الوحش الفرنسي الضاري المنشب مخالبه في جسده.. ثم ينتقل من رياح الشر إلى نسمات الخلاص.. كل ذلك بلغة بالغة الروعة، واقعية إلى أبعد الحدود، رمزية حتى الإغراق، شعرية حتى لتفتت الأفئدة.

ذلك هو الأسلوب الذي يطلق عليه الأديب الفرنسي «إدوار غليسان» في مقدمته اسم الواقعية الشعرية.

وهنا أتوقف لأبدي ملاحظة لا بد منها لمن يود قراءة آثار كاتب ياسين.

إن الطابع الرمزي الذي يطغى على مؤلفاته يتجلى أبرز ما يتجلى في استخدامه شخصيات رمزية كشخصية «نجمة» و«الأخضر» و«طاهر» و«مارغريت».

ولا كتناه مدلولها يجد القارئ نفسه مضطراً إلى تتبعها في أكثر من مؤلف. إن رموزه هذه شخصيات تتردد في كل مؤلفاته تقريباً.. ولِمَ لا؟

فموضوعه هو هو: الجزائر التي تصارع في سبيل الحياة. والقوى المتصارعة هي هي: إنها المجاهدون في جانب، والاستعمار وأعوانه من جانب آخر. والمكان هو هو: الجزائر، أرض المعركة.

ولعلّ رواية «نجمة» أكثر كتبه إيضاحاً لتلك الرموز.

ومع ذلك.. يجدر بنا أن نذكر أن المؤلّف لا يألو جهداً في الإمساك بيد القارئ، وقيادته في هذه المهمة العسيرة. يفعل ذلك تماماً كما يفعل مُخرج فنان في مسرح الدُّمى أو العرائس.

إنّ سر رموز عرائسه لَيَنجلي في السيماء، والألوان التي يُضفيها عليها.. في الكلمات التي يجريها على لسانها.. في الإطار الذي يحركها داخله.. في المواقف التي يجعلها تتخذها. إن اللغز ليتوضح حتى في الانفعالات التي يضرمها في صدورها، والعلاقات التي يربط بها الرمز بالآخر. وإذا بالقارئ يأنس أخيراً بهذه الشخصيات ويألفها، وإذا به يكشف سر المؤلف كله.

أليس هذا موقفنا من شعراء الصوفية الذين يلبسون مشاعرهم الدينية لبُوسَ العشق الجسدي، حين يستعيرون للتعبير عن أشواقهم إلى النور السماوي القوالب اللفظية الموضوعة لخلجات القلب والجسد؟

ولندع الأسلوب الآن.. فإن مقدمة الأديب الفرنسي، وقد أثبتناها هنا، تعطي عنه فكرة جلية.

ولنطرق الموضوع... موضوع مسرحيتينا، وموضوع جميع مؤلفات كاتب ياسين..

وأراني هنا مضطرة للاستعانة برواية «نجمة»، لإلقاء ضوء على المسرحية التي أقدم لها. ألم أقل إن أعمال هذا الأديب مترابطة، يكمل بعضها بعضاً؟

لا بد من وقفة قصيرة عند رواية «نجمة» إذاً، لنُمسكَ بالخيوط الدقيقة لشخصيات «الجثّة المطوقة» وأحداثها..

إن أبطال رواياته: الأخضر، مصطفى.. شباب ينتمون إلى قبيلة من البدو الرحّل تقطن أحد جبال الأوراس، قرب مدينة قسنطينة، ويُطلَق عليها اسم «قَبلوت».. نسبة إلى زعيمها الذي هاجر مع أفراد أسرته من المشرق العربي، في فترة غير محددة، ماراً بالبحر الأحمر، ومصر، ومجتازاً المغرب العربي، تحط به الرحال في جبل «النَّار حُور» على مفترق الطرق بين تونس والجزائر.

وكَبرت القبيلة، وأصبحت مع الزمن كثيرةَ الأتباع، منيعة الجانب، لها مضاربها ومزارها ذو العَلَمُ الأخضر، وجامعها. وكان الحكام الذين يفرضون سيطرتهم على الجزائر يهابونها، فيضعون حامية من الجند بالقرب منها، خوفاً على سلامتهم. وحذا الفرنسيون حذوهم بادئ الأمر، ثم ما لبثوا أن بعثوا بجواسيسهم يجوسون الجبل بحثاً عن وسيلةٍ لمحق القبيلة المتمردة.

وجاء الحل في صباح أحد الأيام.. ذُهِلَ القَبْلوتيون عندما شاهدوا جُثّتَيْ رجل وامرأة غريبتين مجهولتين تسيل دماؤهما على أرض جامعهم. ولم يستفيقوا من دهشتهم إلا على الحديد والنار يعملان في القبيلة حرقاً وذبحاً انتقاماً للضحيتين. ويُساقُ ستة من زعماء القبيلة فتُقطَع رؤوسهم أمام من نجا من أتباعهم بعد جلسة صورية عقدتها محكمة عسكرية أُلِّفت فوراً لهذه الغاية. لم تكن المجزرة قد انتهت حين وصل رسول من السلطات المركزية يعتذر للقوم

عن الحادث، ويعترف ببراءتهم من الجريمة التي كانت سبب المجزرة. ومن ثَمَّ يُكَفِّر عن حَزِّ رؤوس الزعماء الستة بمنح أطفالهم، الذين لم يغادروا المهد بعد، ألقاباً تمثل الوظائف التي ستسندها إليهم السلطات عندما يبلغون سنَّ الرشد.

استفاقت القبيلة من هذه الضربة فوجدت نفسها دون رئيس يَلُمُّ شَعَثَها. وجدتْ مسجدها أنقاضاً، ومضاربها أطلالاً دارسة. وعند ذلك أتمَّ الفرنسيون الخطة.. فتحوا صفحات سجلِّهم المدني، وأمسكوا بالسجلات الأربعة التي سُجِّل فيها أفراد القبيلة، وشُطِبَ السجلُ الأول. بعد أن أقطعوا من بقي على قيد الحياة من المسجَّلين فيه بعض الأراضي البعيدة، ثم ما لبثوا أن انتزعوها منهم بعد حين، وشردوهم في البلاد.

وتابعوا المهزلة أو المأساة.. فوزعوا على أحياء السجل الثاني بعض الأعمال الإدارية، وبعثروهم بذلك بعيداً عن وطنهم في مجاهل الأرض.

وعاملوا أحياء السجل الثالث بنفس الأسلوب.. إلا أن هؤلاء الموظفين الجدد صاهروا عائلات غريبةً عن القبيلة، فازداد بعدهم عنها.

فما كان من الباقين، أحياء السجل الرابع، إلا أن تسللوا إلى أطراف المنطقة، وأقاموا هناك تحت أسماء جديدة، ورسموا الخطة لشد أواصر القبيلة ودعمها بالتزاوج فيما بينها، تاركين حفنةً من شيبِ القبيلة، وأراملها، وأيتامها، في الجبل الجريح، إبقاءً لذكراها، وحِفْظاً لأثرها. ومن أسمالِهم، من بقايا ثيابهم، صنعَ هؤلاء اليائسون عَلَماً أخضر، رفعوه على مزارهم المهجور.

يمثل الفئة الأولى قبلوتي اسمه «سي أحمد». انتزع الفرنسيون منه الأرض التي أقطعوه إياها بعد المجزرة، فلم يبق له إلا قليلٌ من المال بعثره

في المجون والاستهتار مع الفرنسيات. وقُتِل في شبابه في حادث سيارة كان يستقلها مع بغيٍ فرنسية، تاركاً زوجته القبلوتية «زهرة»، وطفلين.. أحدهما «الأخضر» الذي كان لا يزال رضيعاً.

عادت «زهرة» إلى الجبل مع ابنها.. إلى أن زوجوها من تاجر اسمه «طاهر»، يمثل أعوان الاستعمار، الذين يرتفعون بخدمة المستعمر، والتجسس على مواطنيهم.

ويمثل الفئة الثانية «سي محمد» الشريب، وهو محام، أو بالأصح وكيل يتعامل مع الفرنسيين، ويحضر مجالس سكرهم، ولهوهم.. ينتهي به الحال إلى الموت مسلولاً، تاركاً زوجته القبلوتية «وردة» في أحد مصحات الأمراض العقلية، وابنه «مصطفى» صديق الأخضر الحميم، وشريكه في تظاهرات ٨ أيار التي طُرِدا على أثرها من المدرسة الفرنسية، ودخلا السجن، لقد جمعتها رابطة الدم، ورابطة الشعور بمأساة وطنهما، فانضوَيا مناضلين تحت لواء حزب الشعب الجزائري، قائد حركة النضال في ذلك الحين.

وها أنذا أصل أخيراً إلى أهم رموز كاتب ياسين.. إلى نجمة.

نجمة.. كما تجلوها رواية «نجمة» فتاةٌ بدأت حياتها في أحشاء أمها ذاتَ ليلةٍ أمضتها تلك الأم الفرنسية المستهترة في مغارةٍ مع رجلين من رجال القبلوت، قاداها إلى هناك، ثم تنازعاها؛ فقتَلَ أحدهما رفيقه، وانفرد بها.. فولدت منه نجمة.

قضت نجمة حياتها موزَّعةً بين أمها الفرنسية، وأبيها الجزائري، وامرأةٍ جزائريةٍ عاقرٍ تَبَنَّتها، وزوجٍ جزائري خامل لم تطب لها معاشرته.. إلى أن عاد

الصوابُ إلى أبيها الكهل، فاختطفها من زوجها، وارتقى بها إلى جبل الأجداد، حيث أعادها إلى أحضان القبلوتيين المخلصين قبل أن يُسلِّم الروح.

لقد تدلَّهَ في حبها عددٌ كبير من شباب القبيلة الذين وُلدوا بعد النكبة. أحبها الأخضر، ونَذَر حياته لها.. كما أحبها مصطفى، وحسن، وغيرهم كثيرون..

يقول الأخضر في «الجثة المطوّقة» عن حي القصبة:

(هنا زقاق «نجمة».. نجمتي...

إنها الشريان الوحيد الذي أريد إعادة الحياة إليه).

ويبدو طبيعياً أن نجمة هذه ليست إلا رمزاً.. إنها الجزائر نفسها.. إنها الوطنُ الضائع، والماثل أبداً.. إنها هذا الوطن الذي ينبغي خَلْقُهُ من جديد.. هناك في أعالي الجبل.. جبل الأجداد.

إنَّ التعقيد والغموض يحيطان بها من كل جانب:

«هذه هي نجمة.. التي تَغْرقُ الأيدي حين تظن أنها قد أمسكت بها.. إنك تراها حيناً واضحةً جلية، وإذا بها تبتعد عن ناظرَيْك، حتى لَتَصْعُبُ عليك رؤيتها... إنها نجمة.. الصعبة المنال... إنها الغولة ذات الدم القاتم... نجمة التي يتنازع الرجال أبوتها... لكأن أمها الفرنسية قد حكمت عليها بأن تكون كالزهرة السامَّة التي لا يمكن استنشاقُ عبيرها.. لقد لَوَّثَتْها أمها في أعماق جذورها..».

نعم.. لقد شَوَّهَت فرنسا الجزائر.. لقد مَسخَتْ تاريخها... وقضت على لغتها، ومُثُلِها، وتقاليدها. وأبطال كاتب ياسين يذكرون لها جريمتها، ويريدون تطهير أنفسهم، وتطهير بلادهم منها.. ولا يشكون الفقر والجوع، بقدرِ ما يشكون التمزق والضياع الذي يعانونه..

إن أسئلة عديدةً تتردد على شفاههم، وتنتظر الجواب..

من نحن؟

ما هو موقفنا من آبائنا؟

ما هو موقفنا من المتخاذلين من مواطنينا؟

ما هي أمتنا؟

ولا يلبث الجواب أن يأتي.. إنها التجاربُ المرةُ القاسية التي تضعه على لسانهم، فإذا هم يعرفون:

لا.. لسنا فرنسيين قطعاً..

ولن يكون الفرنسيون إلا أعداءنا..

حتى مارغريت (التي يرمز بها للفرنسيين الذين وقفوا أخيراً يناصرون المجاهدين الجزائريين).. حتى مارغريت.. قد تأخرت كثيراً في الانضمام إلى جانب الحق.

وآباؤنا؟.. لم يكن آباؤنا موضع فخرنا واعتزازنا في يوم من الأيام... ألم يُقْتَلْ أبو الأخضر في سيارة مع بغيّ فرنسية؟ ألم يَقْضِ أبو مصطفى مسلولاً بعد حياة لهوٍ وسكر في الخمارات الفرنسية؟

لقد استبدلوا هذه الحياة الرخيصة بحياة القبيلة.. ولكن.. لماذا نبعث الذكريات؟ إن آباءنا قد أصبحوا من الماضي.. فلندَعْ الماضي جانباً.. ولنَتَّجِهْ إلى الأمام!

أمّا الخوَنَة أمثال «سي طاهر» ففيهم يكمن الخطر الحقيقي على ثورتنا.. هؤلاء الذين ينشدون الثروة والجاه، ولو داسوا على رقابنا. إنهم يزرعون

حِرابهم في صدورنا، ويشدُّون جثثنا إلى جذوع الأشجار.. هذا ما فعله «سي طاهر» بالأخضر (رمز الثورة).. فَلنحاربهم أينما وجدناهم.. ولنجتثُّهم من تربتنا كما تُجْتَث الحشائش الضارة.

وأخيراً.. ما هي أمتنا؟

إنَّ الجواب هنا عسير..

أتكون أمتنا تلك الدولة النوميدية القديمة التي احتلّ فرسانها المغرب في سالف القرون؟

أتكون تلك القبيلة التي هاجرت من المشرق العربي، إثرَ هزيمةٍ لحقت بها؟

يبدو أن جواباً قاطعاً يوشك أن ينطلقَ من أفواههم..

إنهم على وشكِ القَوْل:

إن أمتنا هي تلك التي حُرمنا لغتها.. هي تلك التي شطرنا عنها..

إنهم على وشك أن يقولوا:

إنها الأمة العربية...

لنستمع إلى مارغريت تقول للأخضر:

«يبدو لي أنك عربي، وأن ذلك الدم يسري فيك..»

فيجيب:

«نعم.. إن ذلك الدمَ يسري في عروقي».

* * *

تلك هي أهمُّ المَعَالم التي توضح طريق هذا الفنان الوَعْر العميق..

وأخيراً.. فقد آن للقارئ أن يعرف لمحةً عن حياة كاتب ياسين وأهم آثاره.

ولن أكتب أنا هذه اللمحة.. بل سأتركها لدار من أكبر دور النشر في فرنسا هي دار «Du Seuil» تقدمه لقرائها بهذه الكلمات التي أكتفي بترجمتها:

ولد كاتب ياسين في ٢٦ آب ١٩٢٩. في كونده - سماندو التابعة لقسنطينة.

وهو ينحدر من قبيلة عريقةٍ في العلم والأدب.

انقطعت دراسته الثانوية في ثانوية «سطيف» عندما أوقف، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة، وأودع السجن، إثر تظاهرات ٨ أيار عام ١٩٤٥. ثم أطلق سراحه بعد عدة أشهر.

١٩٤٦ نشر أول مجموعة شعرية باسم نجوى.

١٩٤٧ سافر لأول مرة إلى فرنسا، وبقي فيها حوالي تسعة أشهر.

١٩٤٨ سافر للمرة الثانية إلى فرنسا، ونشر قصيدة «نجمة» في «الميركورده فرانس».

١٩٤٩ عمل مراسلاً صحفياً في صحيفة «الجزائر الجمهورية»، فأتيح له المجال ليطوف في العربية السعودية، والسودان المصري، ويسافر مرةً إلى آسيا الوسطى السوفييتية. وفي الأثناء نشر عدة قصائد في باريس والجزائر.

١٩٥٠ توفي والده، فحمل أعباء أسرته.

١٩٥١ ترك الصحافة، واضطر إلى أن يعمل حمّالاً في مرفأ الجزائر. ثم تلت هذه الفترة القاسية، فترة بطالة أقسى. فعاد إلى فرنسا، وعمل هناك خادماً في مزرعة، ثم عاملاً زراعياً، ثم عامل بناء، ومساعد كهربائي.

١٩٥٤ وقف جل وقته على الإنتاج الأدبي، بعد أن أمدَّه بالمساعدة بعض إخوانه. فأخرج رائعته الطويلة رواية «نجمة»، ثم مسرحية «الجثة المطوقة»، في عام ١٩٥٥. وقد قدمت على مسارح بروكسل. ويُنتظر تقديمُها قريباً على مسارح باريس».

هذا هو أديبنا الجزائري الذي نقل الواقع إلى لغة الشعر الجميل. وصوَّرَ تململ الثورة في صدر بلاده، ثم انفجارها جثثاً وضحايا تتراكم في أزقة الجزائر البائسة المظلمة، تنشد طريق الحرية والخلاص...

إن المساهمة في نقل روائعه إلى اللغة الأم ليست أكثر من تحية إكبارٍ وتقدير إلى البلد العربي العظيم الذي ينجب مثل هذا النبوغ في قلب البؤس والدمار.

تحيةً إلى الجزائر العربية، الصامدة.. الواثقة من حريتها، وغدها المشرق.. العزيز.

حلب: ملكة أبيض

مقدمة خاطفة للطبعة الجديدة

كاتب ياسين: أديب جزائري من أكبر أدباء عصره بل من أكبر الأدباء في جميع العصور. كتب باللغة الفرنسية، وعرفته الأوساط الأدبية العالمية بالعديد من الروايات والمسرحيات الرائعة، وفي طليعتها رواية «نجمة» التي رمز بها إلى وطنه الجزائر، ومسرحيتا «الجثة المطوّقة»، و«الأجداد يزدادون ضراوة».

أما مسرحية «**الجثة المطوقة**» فقد استلهمها من أحداث ٨ ماي/أيار ١٩٤٥ الدامية؛ تلك الأحداث التي شكّلت ردّ فعل عنيفاً من المستعمر الفرنسي على مظاهرات الشعب الجزائري المطالبة بالاستقلال، فقد قتل فيها خمسة وأربعون ألف متظاهر. لقد شارك كاتب ياسين في هذه المظاهرات وهو ما يزال فتىً في السادسة عشرة من عمره، واعتقل على أثرها وفُصل من المدرسة.

وأما المسرحية الثانية «**الأجداد يزدادون ضراوة**» أو «الأجداد يضاعفون من ضراوتهم». ففيها يربط المؤلف بين حاضر الشعب الجزائري وجذوره القبلية. إنه يتمثل الأجداد فيها قوة هائلة تملأ سماء الجزائر وأرضها.. روحاً هائمة قلقة لا تجد الراحة، وكأنها قتيل توانى أحفاده عن الثأر له، فإذا به ينقلب عُقاباً يحوِّم فوق رؤوسهم، يحاصرهم ويسدّ عليهم الآفاق، ويستصرخ فيهم المروءة والشرف.

إنني شديدة الاعتزاز بترجمة هذه الآثار الثلاثة إلى اللغة العربية منذ عام ١٩٦٢، إسهاماً مني في دعم الثورة الجزائرية عن طريق تعريف أبناء الوطن العربي بهذه الآثار الأدبية الجميلة، وإثارة روح المقاومة فيهم والتضامن مع أشقائهم في بلد المليون شهيد. فهذه المؤلفات الإبداعية آثار عربية أصيلة، بالرغم من أنها كتبت باللغة الفرنسية، ذلك أنها تتغنى بالأرض، وتمجِّد التراث، وتحثُّ على التمسك بهما والحفاظ عليهما، بأسلوب رمزي شعري جعل النقاد الغربيين يطلقون عليه اسم «الواقعية الشعرية».

إن مؤلفات كاتب ياسين تتحدث عن واقع يتمثل في القوى الأنانية الشريرة التي تعتدي على شعوب بكاملها، فتسرق خيراتها وتعمل على تزوير تاريخها وثقافتها، بغية إخضاعها وإلحاقها بها نهائياً؛ ولكنها تستخدم لذلك لغة آسرة وأخيلة ورموزاً أخّاذة، تسمو بالكتابة إلى أعلى المستويات العالمية. فروايات كاتب ياسين ومسرحياته لا تعدّ من أروع الآثار الأدبية لعصره فحسب، بل إنها من أروع الآثار الأدبية على الإطلاق. ولذلك ليس بمستغرب أن تعاد طباعتها بعد نصف قرن على الطبعة الأولى، كما لا يستغرب أن تعاد هذه الطباعة مرات ومرات بعدئذ، وأن تجري ترجمتها إلى العديد من اللغات.

د. ملكة أبيض

دمشق ٢٥/١١/٢٠١١

نشيد كاتب ياسين العميق

بقلم الكاتب الفرنسي
إدوار غليسان

ظهرت مسرحية «الجثة المطوقة» لأول مرة في مجلة «فكر Esprit» في كانون الأول ١٩٥٤، وكانون الثاني ١٩٥٥.

وقد أضيف إليها في هذا الكتاب مسرحيتان أخريان تؤلفان معها المجلد الأول من مسرحيات كاتب ياسين.

يمكننا منذ الآن أن نحاول استكناه غرض هذه المجموعة. الأدبية ومراميها.

أمَّا أنا فمنذ قراءتي الأولى «للجثة المطوقة» تذكرت عنوان قصيدة شهيرة هي «قصيدة الكانت هوندو» Le Poème du Cante Hondo

* * *

هناك مؤلَّفات تغوص إلى أعماق عصرنا بقوة، وتقيم نفسها جذوراً لا محيد عنها لهذا العصر، تمثله بدقة، وتستخلص منه نشيده العميق. إن ميزتها الرئيسية - كما أرى - تتلخص في أنها تنظر إلى العالم وكأنه جُهْدٌ، أو عمل يجب أن يُنْجَز، لا كسرٍّ غامضٍ ينبغي أن نجاهد بلذة لاكتشافه.

إنها ترى العالمَ وحدةً مجزّأة يجب الوصول في النهاية إلى وحدتها، لا كجوهر غامض يكاد يستحيل الاقتراب منه.

لذلك.. لم تكن هذه المؤلفات لتكتفيَ بالمرور على سطح الأشياء والعالمَ، لتقدم عن كل ذلك لمحاتٍ «موضوعية»، أو رؤى أحلام.. بل نراها تعمل جاهدةً على التغلغل في الحقيقة بطريقة أشدَّ ما تكون التصاقاً بالأعماق.

إنها تؤثر أن لا تتعرض للحقائق إلاّ من زواياها الحادة، من عُقَدها الحساسة التي يملك الشعراء وحدهم القدرة على كشفها، والإحاطة بها.

إنَّ مؤلَّفات هذا شأنها تتجاوز عمداً مجرَّد تعداد المظاهر، فهي ما تكاد تختار أحد التفاصيل حتى نلاحظ على الفور أنها اختارته لقوة دلالته ومعناه، لوضوحه الهائل.. عند ذلك يبدو لنا أننا نلمس قلب الواقع ذاته، وضوحه الكامل، الأكثر عمقاً واختباءً.

هذا الأسلوب الذي يتجاوز الرتابة الباهتة.. للواقعية الكاملة التي لا تريد أن تهمل ولا تهمل شيئاً من التفاصيل فتجرد الواقع من قوته الحقيقة.

هذا الأسلوب هو أسلوب مسرحيات كاتب ياسين.. ولعل خير اسم نطلقه عليه هو: الواقعية الشعرية.

لقد تكلمتُ عن العالم، عن عالمنا، كما تراه مؤلَّفات النشيد العميق.. كجهد، كوحدة مجزَّأة ينبغي إعادتها إلى وحدتها.

كيف لا يفهم المرء بأن هذه النظرة التي تبني عالمنا كله على أساس شاعري هي في الوقت ذاته ذات نظرة مبنية على أساس إنساني في واقعنا اليومي الأكثر ابتذالاً والأكثر إغاظة.

أليست هي مأساتنا جميعاً التي ترتسم هنا من وراء القتال والصدمات والحروب بين الشعوب.

لقد آن لنا أن نفهم، في غمار هذا العالم المضطرب، الذي يتمخض كل يوم عن ميلاد مفاجئ، بأن من المستحيل أن نتجاهل القوى الجديدة التي تحطم يومياً كل مفاهيمنا السائدة عن الوجود والفن.. لتعيد بناءها من جديد.

هذه القوى التي تفجر غلاف الفرد هي قوى الشعوب التي أصبح كل منها يعرَّف الآن بالنسبة إلى الآخر.

لقد اكتُشِف العالم حتى الآن بكامل حدوده الجغرافية، ولم يبق مجالٌ لتجاهل هذا الشعب أو ذاك من شعوب الكرة الأرضية.

إننا اليوم، أكثر منا بالأمس، لا نستطيع أن نجابه حياتنا أو فننا بمعزلٍ عن الجهد الهائل الذي يبذله البشر من شتى الأجناس والثقافات في محاولاتهم الرائعة للتقارب والتعارف..

اليوم أصبحت الدائرة مغلقَة.. وها نحن جميعاً نقف في مكان واحد هو الأرض.. الأرض كلها.

ومن هنا.. تبتدئ وتتسع مأساةُ عصرنا.. هذه المأساة التي تتمثل في وجود الإنسان أمام يقظة الشعوب.

مأساة القَدَر الفردي الذي يقف وجهاً لوجه أمام القَدَر الجماعي..

هذا الأساس السرمدي للمأساة يصبح من جديد أساساً للمؤلفات العظيمة للإنشاد العميق العصري.

لأنه من هذه المواجهة بين القَدَر الفردي والقَدَر الجماعي يستطيع الإنسان - كفرد - أن يحب، وأن يفهم الشعوب.

وتستطيع الشعوب بدورها أن تُغْنِيَ النتاج الإنساني، وتضمن له الاستمرار والبقاء دون أن تفسد شيئاً مما يحمله كل فرد في نفسه من أصيلٍ وثمين..

تلك هي إحدى الخصائص الكبرى لهذا اللون من الفن الذي يسمونه المأساة.. هذا الذي مُنِيَ بالتقهقر في القرون السابقة حين اضطر الإنسان أولاً إلى أن يجاهد لاستعادة شخصيته حين كان يطالب بها في إلحاحٍ وإصرار كإتمامٍ لعمله وإنتاجه.. هذا اللون يعود الآن بمحتوى جديد.

إن النتاج المسرحي لكاتب ياسين صورة مثالية لهذه المأساة المعاصرة التي ذكرتها، المأساة التي يحاول بها الفن عامةً، والفن المسرحي على الأخص، أن يتصل بالعالم، ويجعله ينسجم معه، ويوضح بهذا الشكل القَدَر المشترك لجميع البشر.

إن الحقيقة التي يعبر عنها هنا هي حقيقة الشعب الجزائري.. سواءٌ ذلك في المأساتين: «الجثة المطوقة» و«الأجداد يزدادون ضراوةً»، أو في «مسحوق الذكاء».. تلك الملْهَاة ذات الدلالة القوية التي تتوسطهما كزَمَنٍ مسرحي ثانٍ.

في هذا الزمن يفسح الكاتب المجال لنجمة «الجثة المطوقة» أن تتكامل في الأعماق، لتنقلب المرأةَ الضارية في مسرحية «الأجداد...».

إنها الجزائر المفجعة، الماثلة أبداً، التي تبعث الحياة في المسرح.. تحدد فيه المكان، وتوجه الزمان.

إنها الجزائر التي تعطي هذا المعنى الحي للتفاصيل الممتعة، والحركات الصافية، والشعر الذي لا حدود له.

ينتج من ذلك أن الرموز التي يلجأ إليها كاتب ياسين في مسرحياته، كرمز الأجداد مثلاً، لا تتدخل في فنه كعرض فارغ، يغطّي الواقع بقناعٍ زائف، وإنما هي تجسيد شعري نابض بالحياة لهذا الواقع.

بهذه المميزات والخصائص الجديدة نرى أنفسنا أمام مسرح عظيم حقاً. ولا بد لي من وقفة عند لغة هذه المؤلفات..

إنها لغة الشعر..

إن المؤلف لا يتردد في أن يعبِّر بغموض عما هو غامض مظلم في الإنسان.

ولكنه ينفجر في خطوطٍ دقيقة عندما يرى أن هناك حقائق يجب إبرازها بدون لفٍّ أو دَوَران..

إن لغةً كهذه تتناوبها الحرارة والظلمة كليلة صيف.. والسرعة والفاعلية كأداة ماضية في اليد.

إن لغةً كهذه لتلائم كل الملائمة هذا المشروع الهائل.

إنها لا تضحي بعظمة الفن أمامَ الهدف الذي ترمي إليه، ولا تجعل من الهدف النبيل ضحيةً للتعبير الهزيل.

أما من حيث الفن المسرحي فقد ذُهلت لهذا التلاقي بين كاتب ياسين، و«إيمي سيزير» في مسرحية «الجثة المطوقة»، ومسرحية «.. وصَمَتَ الكلاب».

إننا نستطيع أن نجد لحظات مختارة وأن نلمس في أكثر من مكان الأساليب المتماثلة، والخواطر المتواردة، بين كاتبين منكبين على موضوع واحد.

إن هذه العُجَالة لا تتيح لنا الفرصة الكافية لتوضيح هذا اللقاء بين الشاعرين اللذين يبدوان لأول وهلة جدَّ متباعَدَيْن، يوجه كل منهما إنتاجه بأسلوب يختلف عن الآخر.

ولكن أليس هذا دليلاً واضحاً على شمول المأساة، وأصالتها، وصدقها.

* * *

وختاماً.. أرجو أن يتاح للكاتب في يوم من الأيام أن يقدم لنا مسرَحَ الفَرَح والسعادة الذي يستحقه دون شك وطنه وشعبه العظيم.

هذا الأمل الذي يخفق بين سطور هذه القطع المسرحية، أملٌ يحسه الجميع، ويتمنى تحقيقه الجميع.

إنه ملك لجميع الشعوب..

وبهذه الروح، يتغلغل هذا الشاعر الجزائري إلى أعماقنا، ويلقننا دروساً جديدة في الفن، وفي الحياة.

هذه الروح هي التي تدفعني إلى توقيع هذه المقدمة.. تحيةً مني للموهبة الكريمة..

موهبة كاتب ياسين..

إدوار غليسان

الجثة المطوقة

مسرحية ثورية

«... حيٌّ القَصَبة، هناك وراء الخرائب الرومانية، في أقصى الشارع يجلس أحد الباعة القرفصاء، أمام عربته الفارغة.
زقاق مسدود من أحد طرفيه.. يُفْتَح من الطرف الآخر على الشارع، مؤلفاً معه زاوية قائمة.
كومة من الجثث تغطي واجهة الجدار... أَذرُع، ورؤوس تتحرك حركات يائسة.
يصل بعض الجرحى ليموتوا في الشارع. يُلقْىَ ضوءٌ على الجثث التي يصدر عنها أولاً أنين خافت، لا يلبث أن يتجسد شيئاً فشيئاً.. ويصبح صوتاً متميزاً هو صوت الأخضر الجريح».

الأخضر : هنا شارع الوَندال. إنه شارع في مدينة الجزائر، أو قسنطينة. في سطيف، أو غلمة، في تونس، أو الدار البيضاء - لا فرق -.
آه.. إن الفسحة لتضيق عن إظهار شارع الشحاذين، والمُقْعَدين بجميع أبعاده، وزوايا رؤيته!
لتضيق عن سماع نداءات العذارى المسرنمات[1]... لتضيق عن السير خلف توابيت الأطفال.. عن استيعاب

(١) السرنمة: المشي في النوم.

همهمات المحرّضين، تلك الهمهمات المقتضبة التي تختلط بموسيقى المنازل المغلقة.

هنا وُلدت.. هنا ما زلت أزحف لأتعلم الوقوف على قدمي.. حاملاً نفس جرح «الصرة» الذي فات زمن خياطته منذ أمد بعيد.

إنني أعود إلى النبع الدامي.. إلى أمنا المستعصية على الفساد.. إلى المادة النقية التي لا شائبة فيها، فهي حيناً تولد الدم والقوة، وهي تتحجر أحياناً في احتراق الشموس الذي يحملني إلى المدينة المضيئة في حضن الليل المنعش.

أنا الرجل القتيل لغير ما سبب واضح. وسأبقى كذلك ما دام موتي لم يُعْطِ أية ثمرة.

كحبة قمح صُلبْة سقطت تحت ضَربَات المنجل، لتتموَّج إلى الأعلى، وتستعد من جديد لتلقِّي الضربة التالية على البيدر. إنها تضم الجسد المسحوق إلى الشعور بالقوة التي تسحقه في انتصار شامل حيث تعلمِّ الضحية جلاَّدها استخدام الأسلحة.. وحيث لا يعرف الجلاد أنه هو موضوع التعذيب.

إن الضحية لتموت.. وهي تجهل أن المادة ترقد منيعةً في الدم الذي يجف، والشمس التي تشرب.

هنا شارع الوَنْدَال، شارع الأشباح، شارع المجاهدين..
هنا شارع قطيع الصبية المختونين، والعرائس اللواتي تزوجن منذ أيام.. هنا شارعنا.

لأول مرة أشعر به يخفق كالشريان الوحيد في ارتفاع الضغط، حيث أستطيع أن ألفظ الروح فيه، دون أن أفقدها.

لم أعد جسماً.

إني الآن شارع..

إن مدفعاً سيكون ضرورياً لهم بعد اليوم إذا أرادوا قتلي.

وإذا ما قتلني المدفع، فسأبقى أيضاً هنا.. كشعاع كوكب يمجِّد الخرائب، ولن تستطيع أية قذيفَةٍ أن تصيب مأوايَ بعد الآن.. إلا إذا ترك أحد الأطفال المبكرين في النضج جاذبية الأرض ليتبخر معي في شذى نجمة، وسط موكب من مواكبنا الفريدة، حيث لا ينظر أحد إلى الموت إلاَّ كلعبة مسليِّة.

هنا زقاق «نجمة».. نجمتي..

إنه الشريان الوحيد الذي أريد أن ألفظ روحي فيه.

إنه زقاق يسوده الظلام الدائم.. زقاق تفقد منازلُه بياضَها كالدم، بعنف كعنف الذرَّة على وشك الانفجار.

«صمت.. ثم يعود صوتُ الأخضر إلى الكلام..»

هنا في الظل، تتمدد الجثث التي لا يريد رجال الشرطة رؤيتها..

لقد تنقَّلَ الظل على شعاع النهار الوحيد، ومكثت كومة الجثث على قيد الحياة، تطوف بها موجة عارمة من الدم، كتنين مصعوق يلملم قواه ساعة الاحتضار، غير عالم بعدُ ما إذا كانت النار ستأتي على رفاته كلها أم على إحدى القشور الحية التي يتألق بها عرينه.

هكذا تمتد حياة الجماهير أمام سرير موتها بالذات، في عملية الإبادة الرهيبة، العملية التي تزودها بالسلاح، وتفتح لها طريق الخلاص.

وفيما أنا صريع في زقاقي، في مسقط راسي، يعود إلى فمي طعم قديم.

ولكنه لم يعد طعمَ المرأة التي وهبتني الحياة.. ولا طعم تلك العشيقة التي احتفظ بعضتها.

إنه مَذَاقُ كل الأمَّهات.. وكل الزوجات اللواتي أشعر بعناقهن، يرفع جسدي بعيداً عني، بحيث لا يبقى مني

إلا صوتي فقط.. صوتُ الرجل، ليخطب خطاب جمع المذكر.

إني أهتف باسمهم جميعاً.. إني لأقول: نحن. وأغوص في أعماق الأرض، لأبعث الحياة في الجسد الذي يخصني، وسيكون لي إلى الأبد.

وفي انتظار البعث، يجب عليَّ - أنا الأخضر القتيل - لكي أُنشَرَ من وراء القبر، وأقوم برثاء نفسي، يجب عليَّ أن أجمع فيَّ إلى مدِّ الرجولة جَزْرَ الجماعة لكي تستطيع جاذبية القمر أن تجعلني أحلق فوق قبري في الأعالي ممتداً إلى أبعد مدى..

هنا أبدأ بإحصاء نفسي.. لم أعد أنتظر النهاية..

نحن مَوْتَى.

إنها جملةٌ لا تُصَدَّق...

لقد متنا قَتْلاً...

سيأتي رجالُ الشرطة لالتقاطنا.. أما الآن، فإنهم يتجاهلون وجودنا.. إنهم لا يجرؤون على اجتياز الظل، حيث نتجمع أكداساً من القتلى، وحيث لا تستطيع قوةٌ أيةُ قوة أن تفرقنا بعد الآن..

نحن موتى.. لقد أبادونا دون أن تشعر المدينة بنا.

كان أولَ من شاهدنا امرأةٌ عجوز تجر أطفالها وراءها.

يبدو أنها أثارت بعض الرجال الأشداء، فإذا هم يتغلغلون بيننا بغتةً مسلحَّين بالمعاول والعصي، يريدون دفننا بالقوة.

لقد اقتربوا منا بخطى الذئب.. رافعين أسلحتهم فوق رؤوسهم.

كان سكان الحي يراقبونهم من أعماق مساكنهم المطفأة، يتوزعهم القلقُ والرعبُ لمرأى الأشباح المنكبة على الجثث.

لقد ارتكِبَتْ مذبحة بشعة..

وقبَعَ الأهالي سجناءَ دورهم طَوالَ الليل.. لم ترقد لهم عينٌ حتى انبلاج الصباح.. الصباح الذي يوقظني الآن.

كأنما كانوا يتوقعون أن يُذْبَحُوا هم أيضاً.. لذلك راحوا يتهيأون للمذبحة منطوين على أنفسهم، في عزلة خانقة.

ثم توقفت الأشباح ذاتها.. عن الغدوّ والرواح.. وأخلى آخر الهررة المكان.. أماً المارة الذين أصبح مرورهم نادراً فقد كانوا يضطربون من حشرجاتنا، ويتوقفون لحظة عند ساحة الاشتباك.

ولم تمر دورية واحدة لتعكر تأملات المارة الخاطفة.

إن هؤلاء المارة يحسون الآن إحساساً جديداً تجاه المناضلين الغامضين الذين ما يزال موجهم يهدر تحت أقدامهم، في هذا الشارع الذي كانوا يرونه دائماً قذراً معتماً.

في هذا الشارع حيث انبثق فجأة مجد المذبحة الرهيبة، ليفتح الزقاق المسدود على جولات قادمة.

«نجمة في خمارها.. تغادر غرفتها وتمضي في اتجاه الزقاق.. تمزق خمارها وثوبها.. وخدها.. وهي تولول وتنتحب..»

نجمة :

انظروا إلى الصدر الأعمى
بعيداً عن الحبيب المفطوم
إنه لن ينضج أبداً..
هذا الثديُ الذي اسوَدَّ من طول الفراق.
لم يعد هناك فم يعرف كيف يثيره حتى الزبَد..
الأخضر يرقد هناك..
مع آخرين سواي..
لقد حذرتموني..

كنت قد حلمت بأزيز الرصاص.
ولكن كان عليه أن يعود عند الغروب
كان عليّ أن أخفيَ عنه شيئين
دموعي، ومديته..
وها أنذا الآن قد بقيتُ وحدي
وحدي.. نَذْراً للظلمة الموحشة
أنا الأرملة التي لم يُسْلَبْ بهاؤها قط
أنا الزهرة العمياء
التي تبحث عن رجلها المختار
رجلها الذي يحوم حول تويَجها
رجلها الذي اختطفه القربان
قربانٌ أحرقت فيه الجثث كقرية النمل.
هكذا هجرني الأخضر...
ذلك النملةُ الذَّكَر..
لقد مرَّ بشذى فراشي المتكبر
ليسقطَ في هذه الكومة من الجثث المجهولة..

حسن : منذ غادرنا الأخضر.. نحن هنا بدون أخبار. لم تتحرك نجمة طوالَ النهار.. وهاهي ذي تنطلق الآن صامتة تحت ستار الليل.

نعم .. هذا شبحها، الذي يبتعد متمسحاً بالجدران..

إنني لم أسمعها تخرج..

مصطفى : «ينهض فجأة من غفوته..» نجمة! لا يجب أن ندعها تذهب. نادِها. لا تنس أن الأخضر تركها هنا.. ومعنى ذلك أنها ستكون في حمايتنا.. ولو لم يخطر بباله مثل هذا قط.

انظر إليها.. وهي تتخطى الأموات. لم تستطع الدهشة ولا الرعبُ، أن يُثْقِلا مشيتها.

هاهي ذي تتوقف أمام بوّابة الموت. إن خمارها يتطاير في الليل، وترتفع أطرافه، حتى ليظنه المرء مركباً جانحاً في عرض البحر، ليكشف لنا الأفق البعيد.

إلحقْ بها حالاً. قد يغمى عليها بين اللحظة والأخرى.. إن أبرع لفتات الغزالة النافرة ليست في أغلب الأحيان إلا وقفة على مرمى البندقية.

«يخرج حسن متسللاً للقاء الشبح. وبعد لحظة مظلمة على المسرح تدخل نجمة هائجة ممزقة الخمار يتبعها من بعيد حسن. تجلس نجمة على أحد المقاعد.».

طاهر : «بضحكة مغتصبة» قهوتكِ ما تزالُ ساخنة.. ولكن قولي بربك أين كنت تودين الذهاب؟ عند أقربائك؟.

مصطفى: دعها تشرب قهوتها. ليس لنجمة أسرة. «إلى نجمة» ليس لكِ، بكل بساطة، إلا الانتظار. إنكِ تعرفين الأخضر خيراً مما نعرفه..

طاهر : «معاوداً الكرة» لا يترك الإنسان أسرته في سبيل مجنون كالأخضر.

حسن : «وقد عيل صبرُهُ» اعلم جيداً أيها «الجيفة». لو لم يكن رفيقنا غائباً لما فتحنا لك باب دارنا قط. إننا لا نتسامح معك احتراماً لشعركَ الأبيض.

طاهر : الأخضر.. الأخضر.. إني لا أسمع غير هذا الاسم.. أليس الأخضر ابني قبل كل شيء!.

حسن : إنه ابنُ أمه.. أوضح لك ذلك.. لماذا تريد أن تثير هنا موضوع عقمك؟ ما أنت إلا زنبور، عجوز، مِهذَار.

«صمت.. ثم تبدأ نجمة نجوى خافتة. وهي تُدني الفنجان من فمها.. وكأنها تطوي نفسها على كلماتها..».

نجمة : لم أسمع جواباً على نداءاتي إلا وقع خطوات جندي وعبثاً أتيه في الأماكن المحرمة، حيث يجر المرء نفسه دون أن يتمكن من الانتقام من هذه الوحوش المسمرة إلى الأرض بجزمة لا يمكن مهاجمتها، هذه الجزمة التي يلفنا وجودها كوعدٍ بالمعركة.. المعركة التي لابد

من خوضها.. المعركة المحتومة للانتقام الذي نُعِدُّهُ دون كلمة.. دون سلاح.. ولكنَّ لنا على الأقل إيماناً بأننا سنُقهَر ولكن بكبرياء من لا يُقْهَر أبداً..

وما دام الصديق الوحيد قد هلك.. فإني سأنتظره الآن أكثر من أي وقت مضى، سأدوس بقدميَّ الترابَ والدم، كعجلةٍ مهرولة إلى المَسْلخ بحثاً عن شَبَهٍ لمن فقدتْ.

ما أكثر الوجوه المعفَّرة بجانب قدميَّ!.. ما أكثر الأشباح المبعثرة التي تلاحقني.. ولكني لا أرى أيَّ أثر للأخضر..

مصطفى: كثيراً ما يحتفظ الأخضر بالصمت عندما يُنادى.

طاهر : أما أنا.. فسأكون قد هدرتُ قوايَ جريْاً كالبائس وراءَ هذا اللعين.. هذا الولد الذي تبنَّيتُهُ. ورحتم تعنفونني على محبته، أنا الأب الوحيد الذي عرفه هذا الشقيُّ منذ جاء إلى الدنيا حتى اللحظة التي أدرتم فيها رأسه بأفكاركم الجديدة التي لا أدري من أين أتيتم بها..

لقد فُقِد الأخضر الآن.. بعد أن وقعَ تحت سيطرة رفاق لا يعرف أحياناً أسماءهم. لم يفقدْ بالنسبة لي، لأبيه فحسب، بل فقد بالنسبة لأمه التي تركها منذ صغِره..

عندما هجَر المدرسة. في ذلك اليوم الذي قررتم فيه أن تهزأوا برجال الشرطة، وأن ترفعوا راياتكم غير المفهومة.

ومنذ ذلك الحين.. أصبح هذا العمل ديدنكم. لم يعد رجال الشرطة يكفون.. لقد أصبحوا يبعثون لكم الآن. بالجنود، والنتيجة؟ ما هي النتيجة؟ جثث الشباب. هذه الجثث المكدسة على قارعة الطريق. هؤلاء أيضاً هم من «الرفاق» الذين من أجلهم تركتم كل شيء.. الكتب المدرسية وأدوات العمل والبيوت، والأسر، لتُعيدوا حشودكم ومغامراتكم أبداً بانتظار أن يبعث بكم رجال الشرطة والجيش الواحد تلو الآخر إلى مصيركم المعلوم.. إلى كومة الجثث المجهولة الأسماء.. الجثث التي لا تقدرون حتى على مواراتها التراب.. في الوقت الذي يبقى فيه رفاقكم – وربما كان الأخضر من بينهم - مطروحين تحت سمعكم وبصركم في ذات الشارع الذي كانوا يؤمونه لحضور اجتماعاتكم.

مصطفى: لقد ولدنا في هذا الشارع كلنا. وليست الشرطة هي التي ستخرجنا منه بالقوة. أما الجثث التي تشير إليها فقد طالما شاهد الزقاق جثثاً أخرى غيرها. أنت نفسك. أيها الشيخ المسكين. سيشاهد الزقاق مرور نعشك من هنا.. وسنمر جميعاً من هذا الطريق.

ليس عدد الجثث هو الذي يثقل على شارعنا.. إن ما يثقل عليه هو موت الجبناء في عزلتهم وانطوائهم، موت المتخوفين المضطربين الذين هم على شاكلتك..

أنتم أيها الآباء المتقاعسون المتخلفون. الذين تخونون الأجداد.. أنتم تظنون أنكم تؤمنون آخر أيامكم بإرسالنا إلى «ورشات العمل».. إلى المدارس التي يطردنا منها باستمرار أولئك الذين استطاعوا أن يجعلوا من نيركم، من عبوديتكم شيئاً عزيزاً على قلوبكم..

إنكم تُعجبون بالقوة، بمظاهر الأبَّهة، بأسلحة المرتزقة والمأجورين التي انتصرت على أجدادنا وأجدادكم.. لم يعد للنضال أيٌّ معنى في نظركم. فماذا يعني كل ذلك؟ هل يعني كل ذلك؟ هل يعني إلا أن نفوسكم الخانعة قد قادتكم إلى عار الانسحاق الذي تتقبلونه بغبطة؟ لقد قادتكم إلى أن تغذوا أحلام العبودية حتى على أكتاف أبنائكم.. تحذونَ بذلك حذوَ الغاصبين، المتسلطين على رقابكم.. هم أيضاً يظنون أنهم يحبونكم بسلامة طوية.. «إن الحثالة دائماً سليمةُ الطوية». ما داموا يعيشون على كَدِّكم ويشركونكم في خزيهم. وهم يحملون الشعور بأنهم ليسوا إلا آباءً موجِّهين.. يا للآباء الموجَّهينَ.

ولكنْ .. ثقوا بأنكم ستكونون آخر المخدوعين. إنَّ أبناءكم، على الرغم منكم، قد شبُّوا في الشارع.. لم يكن الوقت كافياً لترويضهم على النير. إنهم يرونكم تَنفقون[١] بسرعة حاملين معكم أحلام الهدوء والاستكانة..

لن نعمل بعد اليوم «لأواخر أيامكم».. لن نعمل لأواخر أيام الخَدَم، والعبيد..

طاهر : في بلد الشقاء هذا.. تسيل الدماء كل عشر سنوات .. لقد رأيت كثيراً من الصبية الأغرار المشتعلين حماسةً مثلكم. يركضون دائماً نحو الانكسار. ألا خبرّوني ماذا استطعتم أن تصنعوا أنتم وأعلامكم[٢] أمام المدافع الرشاشة؟ جميع الانتفاضات تهدأ بنفس السرعة التي يهدأ بها عويل الأطفال. تدمر بيوتنا بالمدافع، ويقبل رجال الجيش والجيش المحلي يعزِّزون الشرطة.. إنهم يجلدونكم، يُهينونكم.. إنهم يسوقونكم إلى العمل بالقوة.. إنهم يطلقون النيران على مواكبكم اللعينة.. وكل ذلك

(١) نفقت الدابة: هلكت.

(٢) إشارة إلى أن المظاهرة الكبرى التي انطلقت يوم ٨ أيار ١٩٤٥ لم تكن تحمل إلا أعلام الاستقلال.

ينعكس بلاؤه على أبرياء.. هل يستطيع أطفال كاتب المحكمة التسعة الاعتماد عليكم؟ الأطفال التسعة الذين أُحرِقَ والدهم حياً بعد أن رُشَّ جسمُهُ بالبنزين، لماذا؟ لأن الغبيَّ احتفظ ببعض النسخ من منشوراتكم.

حسن : يخيَّل إليَّ أنك تبتهج بتوجيه هذه الحملة إلينا..

مصطفى: دع الغراب ينْعَب، فليس هو ما يقلقني .. ولكنْ.. قل لي يا حسن.. أتذكر ذلك الشاب الذي أدانته المحكمة العسكرية بتهمة توجيه نظرة مهينة إلى موظف «منهم» أثناء قيامه بالوظيفة..؟

حسن : وكيف لا أذكر؟ ألم يكن في خليتنا؟ لقد قال لنا بعد هربه من السجن: إذا كان الانتقام مستحيلاً.. فلماذا يبقى الإنسان في هذا البلد؟.

طاهر : وهكذا ترك معظمكم هذا البلد، وذهبوا إلى فرنسا. لقد أكلتم على مائدة أعدائكم. لقد تكلمتم لغتهم، وارتديتم نفس البزَّةِ التي كانوا يتصيدونكم بالرصاص من تحتها..

أما أنا.. فقد كنت أشرب واحتفل، بالنساء في الأعياد، ولكني كنت أبقى في بلدي.. لهذا لم أكن في يوم من الأيام جندياً، ولا عاملاً في معاملهم الشهيرة هناك.. إني أستطيع بدوري أن أتَّهمكم بقلة الإخلاص.. إن لم

أقل بالخيانة. لقد عاد الأخضر من باريس منذ سنتين، ولكنه لم يأتِ لزيارتنا مرةً واحدة بعد عودته. إن أمه المسكينة لا تغادر النافذة ترقب الطريق طوال اليوم، عساها تراه ماراً في الطريق..

لقد فقدتُ شهية الطعام والشراب من تصرفاته..

حسن : الشراب على الأخص.. يبدو أن رائحة الخمر قد أصبحت تثير فيك القَرَف..

طاهر : منذ ابتدأت بممارسة الصلاة.. لقد أخذت الفكرة عن أحد التجار الطيبين.. إنكم لا تستطيعون أن تتصوروا أي شعور يخامر النفس حين يصعد الإنسان إلى المئذنة بملابس بيضاء وجسم نقي.

«يدخل رسول من الحزب»

الرسول : السلام عليكم.

«يجلس ويقدم السجاير»

طاهر : ما أخبارك؟ هل من جديد؟

الرسول : «دون أن يلاحظ إشارة التحذير من مصطفى» عليكم بالهدوء الآن .. إنهم يريدون أن يتعرفوا مدى قوتنا بإثارة اشتباكات جديدة بيننا وبينهم.

حسن : سيقولون بأن أوروبيين آمنين قد هوجموا.. ألحجةُ ذاتُها.

الرسول : إن أهم الأماكن التي نلتقي فيها قد كُشِفَتْ، وهي الآن تحت المراقبة الدقيقة. لذلك لم يبق لنا إلا أن نلتزم بيوتنا.. وننتظر.. على ألا نتيح لهم أية فرصة لاقتطافنا وإذا ما فقد جميع المسؤولين كالأخضر وسواه.. فكأن الحزب قد جُزَّت عنقه.

حسن : «مشيراً إلى نجمة المنهارة» لم نقرر بعد وضع الأخضر في قائمة المفقودين.

الرسول : عليكم أنتم أن تبحثوا عنه وتجدوه ..

مصطفى: كيف يتسنى لنا البحث عن الأخضر ما دامت الأوامر تقضي بالتزام بيوتنا؟ نحن لسنا متأكدين من وجوده بين الضحايا.. ألا تعتقد أن رجال الشرطة قد تركوا الجثث في مكانها لغرض واحد، هو إيقاعنا في الفخ!..

الرسول : «يترك كرسيه» ذلك ممكن. «يخرج».

نجمة : «تقف فجأة» سأعود لرؤيتكم.

طاهر : إنها مجنونة.

حسن : اسكت.

طاهر : لماذا تخرج؟ لكلٍ ما قُدِّر له.

مصطفى: أتدعها تفعل ما تشاء؟ كان عليك أن ترافقها..

«تخرج نجمة، يتبعها طاهر على مضض».

حسن : تقول إنها كانت متشاجرة مع الأخضر صباحَ المظاهرة..؟

ما أغرب ذلك!.. أنا على يقين أنها تظنه ميتاً دونما ضرورة، لسبب بسيط هو أنه لم يعد يريد مقابلتها. إني أتساءل، عندما خرجت للمرة الأولى منذ لحظات، أتساءل عما إذا لم تكن قد رأت الأخضر صريعاً في الزقاق.. ألا ترى معي أنها تتصنع الهدوء لئلا تكشف عن ألمها؟

مصطفى: ليس هناك شيء أشد التصاقاً بالمرأة من حدادها.

حسن : يا ليأسها! إنك توافق معي على أنها تأنف أن تجعله يختلط بيأسنا..

مصطفى: إذا افترضنا أننا نجهل ما رأته بجلاءٍ مثلنا.. فإنها تظن أنها تشفق علينا.

حسن : إنها تداري حزنها الذي ستنوء تحت حمله إذا ما تكلمنا بصراحة.. ولكن كيف تركها الأخضر؟..

مصطفى: لقد أمضينا الليل كله نعد المظاهرة. وعند الفجر راح الأخضر يتحرك بسرعة. كان يريد إغلاق الباب. وصرف المجاهدين.. وأخذ العمل كله على عاتقه. وأخيراً.. لم يبق إلا نحن.. نحن الثلاثة أنا ونجمة والأخضر. كنا نغالب النعاس. كأنما كانت نفوسنا تحدثنا

بأن هذه المظاهرة لن تنتهي كسابقاتها. كانت نجمة منزوية في ناحية.. ولكن لم يكن يبدو عليها أنها عابسة أو مقطبة. كنت أنا وحدي أقترب منها أحياناً، وأتحدث إليها. وكان الأخضر قد بدأ يكتب. وأخيراً نهضت نجمة لتفتح الباب. وبسرعة كسرعة قبضة من النحل، كانت الشمس قد هجمت فوق رؤوسنا، وكنا نرتعش تحت لذعاتها الخفيفة، ونحن لم نزل منهكين من عناء الليل. كنا أنا ونجمة قد اقتربنا من الباب لاستنشاق نسمات الربيع. لقد أُخذنا بدفء الفجر الذي فاجأنا بسحره، ولم نجرؤ على أن نعكر ذلك السحر أو نقطع علينا متعته. أعادنا إلى المكان صوت الأخضر قائلاً: لا داعي للحزن الآن. كانت النافذة مفتوحة، وكانت نجمة تتنهد وهي مغمورة بالضوء ورائحة الصباح.

لقد همس لها أيضاً: «لا مكان للحقد هنا..» وابتعد، وهو يوصيني بوجوب تأمين المناوبة.

حينئذ فقط فهمت أنهما قد تشاجرا. عرفت ذلك من الطريقة التي كانت تنظر بها إليه، وهو يتوارى بعيداً عنا، كانت نظرةً حزينة قاسية.

«تخرج نجمة.. تشاهد الأخضر بين الجثث. لقد نهض من بينها بصعوبة.. ملابسه ووجهه. كلها ملطخة بالدماء. يترنح

في الشارع كالمشدوه. تبقى نجمة صامتة.. وبصرها عالق بهذا المشهد المفاجئ دون أن تتمكن من التقدم خطوة واحدة».

الأخضر : ها أنذا أرى نفسي من جديد في بلدتنا. إنها تأخذ شكلها من جديد. إني ما أزال أحرك أعضائي المحطمة، وينتهي شارع الوَنْدَال في عينيَّ، كما ينهار في الليل تحت عاصفة هبت قبل دقيقة محددة، وينطوي في قلب الأحجار، في صدور الحشرات التي ينبشها الريح والصقيع من أوكارها حتى الصباح. حينئذٍ، يخيَّل إليَّ أن جداراً هائلاً قد ارتفع بيني وبين المدينة. إني أود أن أخرج من هذا الموت الدائم، ومن هذه المدينة الميتة التي أراني مدفوناً فيها.

«طلقات نارية تأتي من بعيد، تبدو كأنها غير حقيقية.. يرددها الصدى».

على شجرة مُزعزعة، تناضل أسرتي في سبيل البقاء، أسرتي الغنية بالدم وبالجذور، قبيلتي ذات المزار المهجور الذي عاش قبلي في عَبَق البن المحمَّص.. البن الذي لم يسبق لجيراننا أن أعطوا شيئاً منه لزهرة. زهرة أمي الحاضنة الرؤوم التي لا أجرؤ على رؤيتها

من جديد قبل تحريرها من رِبقة ذلك الرجل ذي السحنة الباهتة الذي تزوجها في غيبة أبي الحقيقي، أبي الذي قضى في سيارة مع إحدى البغايا.. هذا الأب الذي كانت ميتته الشنيعة إحدى اللجج التي ابتلعت بقايا القبيلة. إنه الميت الذي لا يثير فيَّ أي شيء.. إنه لا يُذَكِّرني إلا بقسوة القدر.

إن حياته القصيرة قد تركتني متخلفاً بعيداً إلى الوراء على طريق مقفر، أشبه بسمكة ميتة وُلدت فاقدة الحس خارج أحشاء أمها، سمكة رأت نفسها تولد من جديد، حين أفرغها قِرش[1] ضخم في عملية هضم كالحة، فإذا هي تتخطى هيكله المحتضَر بعد أن مَرَقَتْ من فكيه الواهيين. هكذا فإن موتي يجتاز موتَ أبي السابق لأوانه ولم يبق لي إلا ذلك الرجل الذي تبناني، لكي يحوِّل أمي زهرة عن قبري المقبل. لم يبق لي إلا الأصدقاء الذين تعود إليهم نجمة الحبيبة المنفية، وها أنذا أُصرع مرتين، ولكني أنهض من جديد.. وحدي.. كالتماثيل المهشمة التي تبعثها الزلازل إلى الوجود باعثةً فيها الحياة عندما

(١) القرش: نوع من سمك البحر الضخم.

تحرك العوالم وتهزها بسُعارٍ يخطفُ الأبصار، تريد أن تطهره من هذا التدنيس الأعمى للزمن، للموت، للانحلال ذاته. الدنس الذي لن يستطيع تحرير أفكارنا الباقية منه إلا تلك اللحظة الحاسمة التي لا دواء لها ولا رجعة. تلك التي تحتل مكانها دائماً في المراكز الأمامية من جبهة القدر.

يا للقِرش الفاني الذي يتضاءل، ويخفف من وثباته أمام السباحين المذهولين، هكذا تبدو روح الأجداد متخلفةً على تاريخي، الآن حين أرقد في الشارع كالحجارة، يدوسني الزمن بأقدامه، وهو يعيرني آخر شكل من أشكالي، دون أن يستطيع التغير معي، أو حلَّ رموز قناعي.. الآن حين يتنازع الزمن مع الموت على ذكري الكامن بعيداً عنهم لن يكون لي أي تقويم للزمن بعد اليوم، ولن يعرف دمي الذي أريق بإسراف أي حساب ولا قاعدة في تدفقه.

«طلقات نارية..»

لم نُنْفَ حتى الآن من الحياة.. كلٌّ ما هنالك أننا غُلبنا فقط في أرض المعركة حيث أزحف وحدي على ذقون القَتَلة، وأنا ما بين الحياة والموت.

لقد قضى الربيع بأن أبقى كالأرض البور، تلفني رائحة العوسج المهشم، أتذوقها كما يتذوق القنفذُ المتراجع إلى جحره ألم الرصاصات الطائشة، منديًّا التراب في بطءٍ بحشرجاته الأخيرة.. دون أن يلفظ أنفاسه.

«طلقات نارية..»

ها أنذا وحيد، وفي ظلي تحوم النداءات الخطرة لمدينتنا المهجورة عن بطولة، والمغزوة بوجودنا، المدينة الدائمة الشباب، المعبَّدة على حافة الخرائب.

«طلقات نارية.. طلقات نارية جماعية مديدة، تتخللها فترات من الصمت، تترك المجال للأخضر ليتوقف قليلاً عن هَذَيانه، ثم ينتصب بملء قامته، ليلفظ ببطء المقطع التالي كلمةً كلمةً.. عائداً بذلك إلى وعيه..».

الأخضر: إني لأسمعُ هديرَ الدم يبشر بالحياة، أسمع من جديد صرَخات أمي وهي تعاني آلام المخَاض العظيم، أحس مضاربَ قبيلتي تعيش تحت لَفَحات السَّمُوم التي تتغلغل في عروقي، ثم ارتفع في عتمة الغسق نحو الأجداد.. أجدادي الذين تهتز قاماتهم كأشجار الحَوْر تحركت أوراقُها ورقة ورقة، وانتفضت إذ تدفق فيها نسغ الحياة الذي لا يُقهر.

ويتابع الليل خطاه.. وتمر أمام عيني مواكبُ فرسان النوميديين[1] يملأون الفضاء، ويجددون عزمَهم للمعركة الفاصلة، حين تدق ساعة المغرب مُؤذنة بالخلاص.

«طلقات نارية.. وقع حوافر فرس.. طلقات من جديد.. خطى أفراس.. تخبٌّ.. يخيم بعدها السكون».

وأخيراً .. أراني أمر على ركام الزمن، حاملاً قلبي المحطم الذي يجمع شتاتَ العصور بين جنبَيْه، وأعود - لا تمثيلاً هازلاً، بل تصميماً وإرادة واعية - أعود الرجل المقاتل العنيف الذي ما زال يدوس الأشباح.

«الأخضر ينظر إلى ما حوله. تاركاً الفكرة المسيطرة عليه رويداً رويداً. ثم يتابع بشيء من السخرية».

كنوزي كلها بأثقالها قد أصبحت في قبضة الأيدي المتكالبة التي تشدني إلى المقبرة، ومدينتنا المنهارة ليس فيها إلا الفرح بالحياة مع الجدران الصم».

«الأخضر يترنح على حافة الجنون، في ضحكة عصبية..».

---

(١) نوميديا: اسم الدولة الجزائرية في عهد الرومان. يشير بذلك إلى عراقة الجزائر في كفاحها ضد الاستعمار منذ أقدم العصور.

نجمة : «تصرخ وهي تعدو نحوه» أخضرَ!

«يوشك الأخضر على السقوط، فتمسك به نجمة، وتساعده على الاستناد إلى العربة. البائع يغط في نوم عميق يعود الأخضر إلى التخبط في خواطره من جديد..».

الأخضر: إن الرجال الذين تلقَّفهم الموت، وتركوا لوحشته الرهيبة، يضعون عليّ أيديهم المأخوذة في أطواق ضخمة آتية على ما أرى من أجساد يرقبها البلى.

نجمة : لا أريد أن أسمع..

الأخضر: نحن في هذه المدينة التي لا يطيقها الغرباء لا نطرد أحداً. لقد آوينا الجميع.. ولكن كل غازٍ من الغزاة، كائناً من كان، يستطيع أن يطعننا بخنجره مرة أخرى، وأن يخضب بدوره قبورنا بفرضه لغته الغريبة على أيتامنا وهو يقيم بهدوء بين أهله.. كل ذلك، دون أن يحسب أي حساب لاحتجاجاتنا المتصاعدة من وراء القبور.

لا يستطيع أحد أن يسمعنا لا لأننا لا نصيح، إننا لم نتقطع عن إعلان غضبتنا. لم ننقطع عن النداء، نداء أرضنا السليبة التي اغتصبوها، وجعلوا منها مقبرة ومنفىً دائماً لنا.. أليس من نهايةٍ لهذه الخدعة؟.

نجمة : «وهي تمد يدها لتغلق فمه» إني لا أسمع.. لا أسمع ماتقول..

الأخضر: «يجاهد ليعود إلى مابين الجثث». لقد كُتبت لي الحياة، فدعيني أخفي ما بين جنبيَّ، أنا الروح التي قطعت آخر صلاتها بالموتى، تلك الأدمغة التي تتمزق كأزهار تفتحت في غير أوانها على أرضها المحرمة عليها..

أيتها الزهرة التي تضطرب وتتلوى على قيد خطوات من الرحيق المسفوح، أنتِ يانبتَةَ الأدمغة المظلمة التي اجتازتها أسراب النحل الرصاصية المدَوِّمة في رؤوسنا، القابعة في زوايا الجمود..

نجمة : لا أريد أن أسمع..

الأخضر: اذهبي عني.. لنفترقْ دون ألم عن قلوبنا المسيخة. إن الروح وحدها قادرة على تخطي هذا العالم مهما قلَّت الكلمات التي يقولها الإنسان وهو في الرَّمق الأخير. إني أخلُدُ للصمت.. إني أحس بك حارَّة على طرف لساني، واضرب مجاذيفي بصمت، لأصل إليك عندما ينحسر مدُّ البحر، وفي غمرة التيار يتلقاني صدرك كصخرة بارزة من تحت الماء، فيعوق انطلاقي ويصيبني بالشلل. إني أسبح بصعوبة بالغة، أسبح بحركات مشلولة نحو المغارة

التي ينتظرني فيها النوم العميق. وها أنذا أجيء لألفظ عندك روحي، لم يعد يستهويني الغرق. إني أفضل موهبة الكلام على النوم، شريطة أن تكوني أنتِ سنَدي. ولكنَّ شواطئ جسدك ليست إلا لججاً وصخوراً.. وها أنذا أرسي على الشاطئ وكلي جراحٌ قاتلة.. يكفيني أن أرفع صوتي لأقع في الشَّرَك المميت..

نجمة : لقد ترقبتك في أعماق الأخاديد، وعرفت ما هو أشد من صيد القنافذ في خبايا صدور المجرمين. وكذلك كنت دائماً تضيعني..

الأخضر: نعم، لقد قضيت أيامي في حفرة، أترصد الذين لم يقعوا في حبائلك، كانوا يمشون على صدري، وكنت تتجاهلين ذلك. كنت تهمهمين كالقطة الراضية ساكتة عنهم، وإذا ما هممت بالوقوف في وجههم فإن عنادك كان يجرني إلى سقطات جديدة، يستغلها ويفيد منها كل واحد من خصومي ليفرضوا أنفسهم عليَّ في قفَصي.

هكذا.. كان عليَّ أن أشاطرك سيئاتك، وأحمل عذابي مقهوراً..

نجمة : إنك تكذب، ما هذا العذاب الذي تتكلم عنه؟

الأخضر : كان سوء تفاهمنا يهب خصومنا الجرأة، ويتيح لهم الفرص. كنت وحدي قادراً على تبديد جهلهم. كان الخصوم يتحركون، كانوا يذرفون الدموع حيناً فوق حفرتي. ولم أكن أستطيع أن أدعهم وشأنهم، كما لا أستطيع مداراتهم أنا الذي كنت ما أزال أحمل أثر مخلبكِ. ومع ذلك فإن صوتي يزيد الحملَ ثقلاً، والطينَ بلة. حتى اللعناتِ كانت تزيد في اعتبارك وتتقلب إلى أمجاد لك..

نجمة : «ذاهلة.. تضيف بلهجة حازمة.» إنها ليست إلا نوبة غيرة..

الأخضر : لكن لو كنت أبطلتُ هذا السحر، إذاً لكانوا أذعنوا حين يرونني أترك مضجعك الآسر، لكانوا أثاروني ضدك، ولبرزَتْ أمامي حينئذ قمة العذاب. ولكني لم أكن أريد بلوغ قمتك لعلمي بأن الفراغ يكمن في طرفها الآخر.

نجمة : إنك لم تشأ أن تسيطر عليَّ، أن تغزوني غزواً كاملاً في يوم من الأيام. أتذكُرُ ذلك الصباح الذي تركتني فيه؟ لقد ودعتني بالتهكمات والسخرية.

الأخضر : كان الجنود مستنفَرين في ثكناتهم ذلك الصباح، على أتم استعداد للتدخل عند أول إشارة. وكان قادة حركتنا يجهلون ذلك. كل ما كنت أعرفه هو أن رجال الشرطة

لابد أن يداهموا المكان في الوقت المناسب. كنت في انتظار رجالنا المكلفين بتأمين النظام حين رأيت طلائعنا تطوِّق؛ إن الشعب يجيء دائماً إلى شارع الوَنْدال. وكان ذلك أنه وقت التدفق إلى الشارع جماعات جماعات.

كان رجال الشرطة قد اتخذوا أماكنهم منذ الليلة السابقة، وتمركزوا في عدة منازل من الشارع. كنا جميعاً منهوكي القوى، وانهمر وابلٌ من الرصاص الطائش من إحدى الشرفات، وتدافع الجمهور وازدحم على بعضه، كان كل شيء تصل إليه أيدينا يصلح للقذف ولكننا كنا من دون أية حماية. وأخيراً وصل الجنود، وانهمرت نيرانهم علينا، ووجدت نفسي مُلقى على الأرض، وفي فمي مَذاقٌ قديم. لم أكن أسمع ولا أعي شيئاً مما حولي، ولكن عينيَّ كانتا لا تزالان مفتوحتين. وما هي إلا لحظات حتى أخذت الجماهير تترنح راقصة بنشوة الدم. لم أحشرج، أو على الأقل لم أسمع حشرجاتي، كما لم أسمع حشرجات الجرحى الآخرين من حولي. كنت أحس جسمي ثقيلاً كالرصاص، وكانت الضوضاء تملأ المدينة. كان يبدو لي بكل بساطة أن الشعب كله بدأ يرقص. لم يكن الأمر محزناً. فقد كانت معي بعض

السجائر. لم أكن أرى بركة الدم التي كنت أرقد فيها. كان الجوّ صحواً جميلاً وكانت المظاهرة ما تزال مستمرة، خُيِّل إليَّ أن الجنود كانوا من عالم آخر.. وأما رجال الشرطة فقد نسيتهم تماماً.. ولكن عندما أخذت الجماهير تنسحب، وبدأت الساحة تقفر، عند ذلك فقط أحسستُ لأول مرة بخَوَري.

«فترة صمت، ظلمات، يلوح شبحا نجمة والأخضر، طلقات، أوامر، أنين، زمجرات الجماهير المنتشية بمذبحتها، جلبة، اشتباك، ضوء. المسرح خالٍ إلا من البائع الذي يغفو أمام شجرة البرتقال. لقد هبط الليل. تبرز نجمة وحسن ومصطفى وهم يحاولون التسلل من منزلٍ، إلى منزل»

مصطفى: لا جدوى من الذهاب أبعد من ذلك؛ لن نعثر عليه.

حسن : لقد اختفى أثناء الاشتباك الثاني.

مصطفى: «بلهجة قاسية» كان علينا أن نعنى به، وأن نحبسه بين جدران المنزل بدلاً من تركه في هذا المكان اللعين.

نجمة : لم أتركه هنا. لقد قدته من ذراعه عند ما سمعنا صوت الرصاص والصراخ. كان مستنداً إلى هذه الشجرة. لقد توسلت إليه أن يتبعني، فلم يجبْ وسمعنا صوت مجموعة من الرجال المسلَّحين تمر بقربنا

فأعدتُ التوسل من جديد، صحتُ به أن يذهب إلى أي مكان يشاء إذا لم يكن راغباً في مرافقتي. ولكنه كان يهذي باستمرار محاولاً الوقوف على قدميه. وفي هذه اللحظة اندفعت الجماهير الهاربة من النيران، فاجتاحتني في طريقها، فوقعتُ على الأرض ثم نهضتُ ووقعت من جديد. كان الرجال يتساقطون من حولي، ويجرفونني في تيارهم كلما حاولت النهوض، كأن إرادَتهم الأخيرة لم تكن إلا الانسحاق على جسد امرأةٍ مجهولة.

مصطفى : «بلهجة أشد قسوة» نعرف ذلك جيداً. إن المرأة لتجد نفسها مركز الصراع حتى تحت النيران. وهكذا أضعتِ الأخضر، وسيأتي يوم تضيعين فيه رفاقه أيضاً إذا لم يكن قد حصل فعلاً.

حسن : «يريد تحويل غضب مصطفى في اتجاه آخر.» هذا البائع لم يتزحزح من هنا.. لابد أنه رأى الأخضر.

«يقتربون من البائع، يهزه حسن بعنف».

البائع : «منتفضاً» لعنةُ الله على الكافر الذي أيقظني. آه.. إني أعتذر. لقد حسبتكم من الجنود.

حسن : ألم تَرَ الأخضر؟

البائع : كثيرون في بلدنا يحملون هذا الاسم..

حسن : إنه رفيق، كل الناس يعرفونه هنا.

مصطفى: «يقترب هائجاً» ليس هذا وقت المزاح. قل لنا أرأيته أم لا؟

البائع : كلا.. لم أره..

مصطفى: أحقاً، أنك لا تعرف رجالنا. إنك قابع في الشارع طوال الوقت، ثم تقول إنك لا تعرفه مع ذلك؟

البائع : «خائفاً». إني لا أعرف إلا عملي، وأطفالي.

مصطفى: وما عسى أن يكون عملك في هذا الشارع! ألا تتكلم مع أحد!

البائع : آه، يا إخواني.. إني بعيد عن السياسة. ماذا تجدي السياسة؟

مصطفى: هناك من يفيدون من السياسة.. هناك من يفيدون من الشرطة أيضاً.

البائع : يا إخواني، عندي أطفال سبعة. إني أجاهد طول يومي كي أكسب قوتي كما أستطيع. أيكون مثل هذا محرماً علَيَّ؛ أيحرَّم على المرء أن يكسب لقمة عيشه؟

مصطفى: أسمع.. أنت تعتمد على رجال الشرطة. إنهم يسهلون لك كسب رزقك.. فماذا تقدم لهم مقابل ذلك؟

حسن : سأقول لك ماذا تقدم لهم؟ أتريد أن أتكلم؟

البائع : «مذعوراً» أيها الأخوة، عندي سبعة أطفال. إذا ما استطعت إشباعهم نموا وكبروا.. وأسهموا في تحرير الوطن.

مصطفى: أترى خلاصَ الوطن في أن نصبح مخبرين للشرطة؟ يا لها من طريقة للخلاص!

نجمة : دعوه.. إنه شيخ عاجز.

مصطفى: إنك تقوم إذاً بمهنة الكلاب هذه وأنت مستلق على عربتك.. تغط في النوم.

«يجلس مصطفى القُرفصاء بجانب البائع، مضيقاً عليه الخناق.»

إنك لا شك تحلم بالحاكم، وما سينالك منه. أليس كذلك؟ إن لك لأحلاماً ملأى باللهاث كأحلام الكلاب.

البائع : «راكعاً» أعذروني، أيها الرفاق، لقد حسبتكم أعداء. كلنا عرضة للوقوع في الخطأ، لقد كان صديقكم جريحاً.

حسن : «يقترب من الناحية الأخرى». وإلى أين التجأ؟

البائع : «مشيراً إلى نجمة» لقد رأته هذه المرأة. لقد تحادثا ملياً قرب عَرَبتي، دون أن يشعرا بوجودي قربهما ثم وقع الاشتباك الثاني، ودارت المعركة فلم أعد أرى شيئاً.

أقسم لكم أني لم أتردد في أن أجمع متاعي، وأهرب على الفور.

«ظلام، ضربات صنج مديدة، يتلوها نور.»

«القائد يثرثر مع ضابط آخر مشيراً إلى خارطة لأفريقيا تبدو مرتسمة على الشاشة.»

القائد : انظر إلى تاريخ الدولة النوميدية. إنها ليست إلا شمال افريقيا اليوم. مع الفارق البسيط هو أننا حللنا محل الرومان في مراكز القيادة. لم يكن من السهل في الماضي أن يُهزم فرسان نوميدية. إننا نملك اليوم الطيران، وقد قُسِّمَت البلاد إلى ثلاث دويلات، ولكن الأرض مع ذلك هي الأرض. لن نستطيع إغراق سكانها بالرغم من أننا استطعنا أن نستقدم عدداً من المعمرين الأجانب يفوق أية نسبة وجدت حتى الآن في أية دولة إفريقية. ففي مراكش وفي تونس كما هنا ينقلب الرجال (أهل البلاد الأصليين) ضدنا إنهم يعودون إلى الصراع، بعد أن برزوا من خلال القرون السحيقة وهم يعضون الرمال ليعودوا من جديد، أولئك النوميديين المهزومين الذين تكتلوا لحملات جديدة ضارية.

«ينتقل الضوء. يركز على الأخضر المغطى بالتراب والرضوض، مواجهاً مارغريت.»

مارغريت: هل هاجمك أحد؟

الأخضر : من الصعب أن أقول ذلك.

مارغريت: لقد أوقفت فرامل السيارة وهي توشك أن تدوس جسدك كنت وحدي على المقود. إن لك حظاً هائلاً. لقد أوقفتها في اللحظة المناسبة حين تحركت، ووصلت إلى سمعي بعض الكلمات الفرنسية.

الأخضر : لقد أخطأت دون شك. فقد كان هناك جرحى آخرون.

مارغريت: لا. لا. أنا على يقين من ذلك. لقد كانت كلماتك غير واضحة، ولكنها كانت فرنسية بلا جدال..

الأخضر : «خجلاً» هذا كل ما أفدناه من المدرسة.

مارغريت: ماذا تقول؟

الأخضر : «مستدركاً» لا شيء!

مارغريت: لقد وجدت عناء كبيراً في نقلك؟ من حسن الحظ أني ممرضة. إني أحب العناية بالناس. ولكنها ليست مهنتي. إن والدي لا يرغب في أن أعمل، محتجاً بأن راتبه يكفينا لقد كنت مع ذلك في باريس أقوم ببعض

أعمال التمريض أحياناً، ولكن العمل هنا يثير التقزز. وأخيراً تمكنت أن أوقف النزيف..

الأخضر : إني أشعر بتحسن.

مارغريت: سأخبر والدي إذا شئت. بإمكانه أن يحضر سيارة إسعاف.

الأخضر : أتعتقدين بأن والدك...

مارغريت: إنه ضابط.

«الأخضر ينتفض، مارغريت تحدق إليه بانتباه، قبل أن تعود إلى الكلام بصوت منخفض.»

مارغريت: أأنت غريب: لا.. أنت عربي.. إني أرى ذلك الآن عندما أنظر إليك من كثب. إن ذلك الدم يسري فيك.

الأخضر : نعم إن ذلك الدم يجري في عروقي.

مارغريت: يا للغرابة! هؤلاء الآخرون.. إني لا أستطيع أن أنظر إليهم.. إنهم قذرون.. يخيل إلي أنهم قمل.. إنك لا تشبههم.. تمدد على سريري.

الأخضر : سأنام عند رفاقي.

مارغريت: سأتركك وحدك. تمدد على سريري.

«تخرج مارغريت من الغرفة، وتدخل نجمة..»

نجمة : عفوك! إن رفاقك يبحثون عنك. لقد شوهدت تدخل هذا المنزل.

الأخضر : أنت أيضاً تتلصصين عليّ؟ أعبد أنا، أم طفل صغير؟

نجمة : لقد تبعتك طويلاً.. كلَّت قدماي من الجَرْيِ وراءَك.. لست أنا التي ستحرسك.. لتحتفظَ بك.. إنك ترقد أبداً غارقاً في نظرتك ذاتها.. إذا كان يصح تسمية تلك العنكبوت التي تركض على جبينك نظرة. إني أتبعك، وأنت تعميني، وتضربني، عليَّ تثقل روحك القاسية، إني ارتدي ثياب الحداد، ولكنك لم تمت إلا بالنسبة لي.

الأخضر : لن يفقد أبداً

ذلك العاشق الذي تأتي نسمة جديدة

فتدفنه قبل أوانه..

إني أقدم لنيركِ الوحدة

وأشق أخاديدي لكِ

وتظلين الأرض المحرَّمة عليّ

إن غيابي سيجعل عزلتك مورقة.

نجمة : لقد زرعتني دون عودة

في أعماق ضلوعي

وها أنت الآن تتبدد

أيتها السحابة المنبجسة التي وُعِدْتُ بمائها

الأخضر : كالكيس المقلوب على قفاه

يتصاعد دخاني، أنا الممتزج بكِ..

واغرقكِ بطوفاني أيها الفم المغلَق بإحكام.

أنا المترع بسُحُبك ذات الرائحة العنيفة.

كالكيس المقلوب على قفاه

يتصاعد دخاني أنا الممتزج بك.

أيتها الأرض الموطوءة.. أيتها الرفيقة غير المرتقبة، بقمحكِ الصلب الذي باغتته رقدة طويلة..

نجمة : أنا التي رأت ضَرَبات المنجل تخطفك بعيداً عنها.

الأخضر : ولكني سأخرج من الأهراء التي طُمِرتُ فيها.. ولن تعرفي الحملة القديمة التي ستجتاحكِ..

بعد أن طُرحتِ طويلاً في زوايا النسيان.

بعد أن رقَدَ عُرُْيكِ رقدة الشتاء

إني أجر روحي إلى الموت الذي ينسى نفسه.

لتخلَعْ ثوب زفافها

تلك الساحرة التي يسمونها القَدَر..

لترقصْ - وهي عذراء - حول الناي حتى تستنفد قواها..

لتحاولْ دون جدوى إخفاء انحطاطها السريع كسقوط الشلال هناك.. في أعماق المغاور، مغاور الأعراس.

سيظل الحبُّ، والموتٌّ، والروح

صَرَخاتِ ندم موجعة دفنها الأجداد

لتبقى عبرة لنا

أشبه بكارثة أشعلها الشقاء والحرمان من جديد، في مخيَّم العشاق البائسين، الضائعين في الظلام، الذين لن يستطيعوا التعرف على بعضهم من جديد دون أن يحرقوا آخر عَبراتهم في نضال مرير

تشعر فيه الروح المنكودة بكل وحشتها..

«يدخل حسن، ومصطفى..»

مصطفى : «مشيراً إلى الأخضر» هاهو إنه مازال حياً يثرثر..

الأخضر : انتظرْ..

«تدخل مارغريت فزعةً من رؤية المجاهدين الماثلين أمامها.»

نجمة : لا تخشيْ شيئاً.. إننا ذاهبون.

الأخضر : «متأثراً» لا. لا تفعلوا ذلك. ولنبق معاً.

«مشيراً إلى مارغريت» إنها من باريس..

مارغريت : سأغلق الباب..

نجمة : «متألمة» لا تتعبي نفسك..

مصطفى : «بلهجة المذنب» لقد أتعبت نفسها فعلاً.

«خمسة مصابيح كاشفة تسكب أنوارها على المسرح. ينصب المصباح الأول على وجه الأخضر المتورم فيظهره بجلاء. وعلى ضوء المصباح الثاني تظهر مارغريت التي تحدق إلى الأخضر بشغف، ويبدو هذا الحب الجديد الذي تَفَتَّحَ دون أن يشعر به الجريح. ويكشف المصباح الثالث عن التحدي العاجز لنجمة التي تنظر نظرة مُرَّة تذيب رقة غريمتها. يتذبذب النور الرابع مع النظرة المزدوجة التي يوزعها مصطفى بين نجمة والأخضر، الأخضر الذي بدأ يمقته، ونجمة التي دفعته إلى القنوط التام. ينطفئ المصباح الخامس الموجَّه أولاً إلى حسن المنتحي جانباً، وحيداً، وشريكاً للمجموعة في آن واحد. ثم تلف الظلمة مصطفى فمارغريت، فنجمة، ينطفئ النور الأخير على شفاه الأخضر في الوقت الذي يبدأ فيه الكلام..»

الأخضر : «محاولاً إذابة الجليد، وتبديد الكآبة.» ألديك شراب؟ هاتي أي شراب كان.. ستشربين معنا، سنشرب.. بدون حقد.

«تحضر مارغريت شراباً، يشربون نخب الأخضر.»

حسن : وجراحك؟

الأخضر : ما تزال جديدة.

مارغريت: لقد نزف كثيراً.

نجمة : ستملئينه كما يملأ الزقّ.

مصطفى: «بغيرة» لقد أصبح عديم الإحساس، مثله كمثل تلك الشجرات التي يمزقها منقار اللقلق حتى اللب.

الأخضر : «منحنياً فجأة نحو مصطفى» إن هذا اللقلق نفسه «مشيراً إلى نجمة» يجعل أسنانك تصطك هَلعاً. ولكني أشعر بالراحة. إننا إخوة. والغربان لا يحطم الواحد منها الآخر والآن قل لي أين رجالنا؟

«يبدو مصطفى متبلد الإحساس، لا يحير جواباً. صمت. ثم يتطوع حسن للإجابة».

حسن : لم يبق غيرنا في المنطقة. علينا أن نعيد تجميع رجالنا. إن منزلنا هو أحد المنازل القليلة التي لم تدَاهمْ، ولم يُنْتَزَع ساكنوها. تقول الصحف إن حالة الحصار هذه لن تطول. ولكن جميع الرجال المشتبه بهم، والذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة

والستين، يقتادون بعيداً عن المدينة في قوافل عسكرية.

الأخضر : «لمارغريت» ما رأيُ أبيكِ في الموضوع؟

مارغريت : «ساهمة» إنه ينفذ الأوامر.

مصطفى : نعم.. نعم أنا أعلم أن الكلمة الأخيرة للمُعَمِّرين. فهم الذين يتخذون القرارات. لقد جعلوا باريس توافق على توزيع السلطات بين الجيش والجيش المحلي. إن الحاكم مشلولٌ تماماً. ويمكننا أن نتوقع كل شيْ.

الأخضر : هل نستطيع إحصاء خسائرنا؟

مصطفى: إني لا أرى إلاَّ فئات ثلاث: الضحايا، والأسرى، والناجون. يخيَّل إليَّ أنْ لا نهايةَ لذلك. وإذا ما نظرنا إلى طرف الهوة الآخر لا نرى إلا الظلام الدامس يتراكم. إنهم يُعِدّون كارثة ما.. رغم ما يبدو على الجو من هدوء.

الأخضر : إن خشيتهم من انتقامنا تجعلهم يدفنون انتصاراتهم بأيديهم.

مارغريت : لا تحلموا بأن تلوم باريسُ الجيش، وأن تُسَفِّهَ أعماله.

مصطفى : نحن أدرى الناس بما يَعنيه تسليم السلطة إلى المعمِّرين. إنهم سيتوجهون إليكم. سينقلون الإرهاب في يوم ما إلى فرنسا ذاتها. لقد بدأوا منذ الآن يضايقونكم. لقد بدأوا يغررون بكم. لقد اكتسحوكم. إنهم مرتزقتكم الذين لا يفتأون يطالبون بمزيد من القوة مهما أُعطوا. إنهم لابدّ منقلبون ضدكم في أوج غطرستهم الخسيسة.

مارغريت: «مذعورة» اخفضْ صوتك. إنه يسمع كل شيء من مكتبه.

مصطفى : مَنْ؟

مارغريت: أبي!

«يتبادل مصطفى والأخضر النظرات. وعلى صراخ مارغريت، يطير الباب قطعاً تحت جزمة القائد، فإذا هو يُصرع، في الوقت نفسه، برصاص حسن الذي يصيبه إصابة دقيقة من قرب.. لحظة.. تترنح مارغريت ثم تحزم أمرها، وتمسك بزمام القيادة. تقفز فوق جسد أبيها وتمسك بالأخضر الذي يحاول التملص وسط الدوار الذي أصيب به..»

مارغريت: لنحملهما معاً بسرعة. إن العربة تقف أمام الباب.

«تحمل مارغريت الأخضر الذي يتوقف عن التخبط، يغادران المسرح، يتبعهما مصطفى، حاملاً جثة القائد. تبقى نجمة وحسن وحدهما..»

حسن : «ما يزال تحت تأثير فعلته» إنه أبوها حقاً!

نجمة : وما أهمية ذلك؟

حسن : إنك لتُخطئين حين تكرهينها. إنْ هي إلا فتاةٌ غريبة، أُبْعِدَتْ عن وطنها، وأُرْغمتْ على حياة الفراغ والنكنات. لقد عاشت إلى جانب أبٍ لا يعرف الرحمة، فخنق تفكيرها بالتحزُّب، والتعصب الأعمى. لقد رمتها وحدتها بيننا كالمُسَرْنَمة[1]. إنها تنتقل إلى صف الشباب كما ينتقل الإنسان إلى صف الأعداء ماشية على دمها دون أن تعرف هؤلاء الذين انضمت إلى صفهم. لقد حررتها من عُزْلَتها إحدى ضربات القدر..

نجمة : (عابسة) لا يهمني ذلك.

حسن : ألا تشعرين بالغَيْرة؟

نجمة : دَعْنا من ذلك.. يا لكَ من غبيٍّ، وأنت تحمل مسدَّسك! ألم تلاحظ بأن الأخضر ومصطفى يتبادلان الكُره حين يكونان أمامي! وكيف ربطتهم الصداقة من جديد أمام تلك الفرنسية...

حسن : إنَّ غَيْرةَ الحب تتراجعُ أمامَ صداقة السلاح.

---

(١) السرنمة: المشي في النوم.

«ظلام.. نور. ضربات صنج.. جوٌّ مَشْربٍ غاصٍّ بالناس. تتحدث نجمة وسط المشهد.»

نجمة : لقد آن أن أتحدث عمّا وَقَع للأخضر عندما ودَّع طفولته. كان يخيَّل إليه دائماً أنه قد أُعدَّ للحياة في بلد أجنبي لن أسميه. أما هذه الحوادث التي سأشرحها فقد وقعتْ له بعد أن نضجت فكرة رحيله بعدة سنوات. كان أبوه، (أبوه بالتبني)، يعيش في مقهى ليلاً نهاراً. حتى أن الأخضر ليَذكر جيداً كم رافقه إليه المرة بعد المرة، عندما كانت أعوامُ الجفاف تترك الرجال من دون عمل، كان العمالُ والفلاحون وصغارُ الموظفين، حتى المحامي نفسه، لا يكادون يغادرون المقهى، كانوا يشربون قليلاً أو كثيراً، كانوا يلعبون الورق أو الدومينو، هكذا كانت تمر تلك الأيام القاسية.

كان المحامي يقرأ الصحف، وهو يفرك عينيه، وكان الآخرون يقلِبون رؤوسهم إلى الوراء ليفكروا في مصائرهم، كان أبو الأخضر يريد ألا يلحظ وجوده أحد، وكان يردِّد، «إن الصحف تشبه إلى حد ما تعاويذ السَّحرة، لا يستطيع جميع الناس أن يحلوا

رموزها»، وفي ذات صباح داهمت الشرطة الشارع عدة مرات فلاذ الجميع بالفرار، لاجئين إلى المقاهي، والحوانيت، والحمامات.. حتى المحطة.. أما الأخضر فقد دخل إلى المقهى،

«تترك نجمة المسرح، يشاهد العمال والفلاحون، وصغار الموظفين في وسط المسرح، وبينهم طاهر، يجلس مصطفى في أقصى المقهى، يتسلل الأخضر للوصول إليه..»

الأخضر : «وقد لاحظ وجود أبيه بالتبني؛ يهمهم،» المقهى مزدحم اليومَ.

طاهر : لقد زاد الحضور واحداً بمجيئك.

الأخضر : إني لا أبحث عنك يا أبي. أنا لا أطلب إلا أن تدعني، وشأني..

مصطفى: إجلس أيها الرفيق، واحترم أباك قليلاً.

«في هذه اللحظة يتوقف المحامي عن قراءة الصحيفة، ويندفع بصوت خافت».

المحامي : لقد تم ذلك أخيراً!. لقد حُكِمَ على رئيس الحزب بالسجن عشرين عاماً، مع الأشغال الشاقة.

أحد الموظفين: «بلا مبالاة» هو ذا المحامي يبكي!

المحامي : لن تكون أنت من سيتحمل عناء إخبارنا ذلك.

الموظف: اعذرني أيها الأستاذ. ولكن لك طريقة سيئة في نقل الأخبار.

مصطفى: محكوم طبقاً للقانون؟ عفواً أيها الأستاذ، كيف حكم على الرئيس؟

المحامي: «بلهجة جدية» طبقاً للقانون، ولرَغبات المعمِّرين. لقد أطبقَ عليه الإثنان. يا له من عقابٍ محكم!..

الأخضر: وهو الآن دون دفاع؟!

المحامي: ليست هي المرة الأولى. سيموت في السجن طبعاً.

فلاح: إذاً، فلم يعد هناك من أمل؟

مصطفى: يخيلُ إليَّ أيها الأستاذ، لدى سماعك، بأنه سيحكم علينا جميعاً، عاجلاً أو آجلاً.

المحامي: آه! يا بنيّ.. لقد فهمتني. إن القانون يهددنا دون توقف. وهو يشعرنا بوجوده بمثل هذه الأحكام. ومع ذلك فالقانون لا يصيب الجماعات والكتل أبداً. إنه يتركنا نعيش في خضوع، ما دمنا نعيش كتلة واحدة. ولكن، إذا ما بدا لساخطٍ - ويالسوء الطالع - أن..

طاهر: مرحى.. أيها الأستاذ.. علِّمْنا. زدنا معرفة..

الأخضر: تريد أن تقول إن رئيس الحزب كان الشخص الوحيد الذي لجأ إلى التمرد، وإنه يعاود ذلك دون

أن يتمكن من إقناعنا. تريد أن تقول إننا لم نسر معه حتى النهاية..

المحامي : بلى، يا بني! وأنت أيضاً تفهمني.. إني أرى أن من السخف أن يخرج المرء من شعب جائع جاهل، كشعبنا، ليقع من تلقاء نفسه تحت ضربة القانون. أنتم ترون بأم أعينكم كيف قضي على هذا المسكين قضاء مبرماً. إن الحكم عليه لن يفيد في شيء.. اللهم إلا في إدخال قسط أوفر من الفزع والخوف إلى قلوبنا. وكل ما نفعله نحن هو أن نطاطئ أعناقنا أمام غارات سلبنا، وتجريدنا من كل ما نملك..

الأخضر : مرحى.. يا أستاذ.. يبدو عليك أنك تعرف الكثير من القضاة. إنك تتحدث عنهم بحكمة..

المحامي : «بتواضع» إني مسجل في نقابة المحامين منذ عشرين عاماً.

الأخضر : إني لأفكر في هذا الرجل الذي حكم عليه. إنه هو أيضاً مسجل في هذه الهيئة لمدة عشرين عاماً، ولكن في الجانب الآخر من المحكمة. أتفهم ذلك أيها الأستاذ، أتفهم ذلك؟

المحامي : «مشتتاً» نعم، لقد عرفت كثيراً من القضاة.

الأخضر : هل عرفتَهم معرفةَ إنسان لإنسان؟

المحامي : بالتأكيد.. إنني مسجَّلٌ منذ عشرين عاماً...

الأخضر : ليس قانونهم صعب المنال إذاً. يكفي أن يتسجل المرءُ في النقابة. إنك تبعث فيَّ الرغبةَ للقيام بذلك.

المحامي : «بانزعاج» لقد فات الأوان لإتمام دراستك أيها الشاب.

الأخضر : اقتربوا. اقتربوا جميعاً. نستطيع كلنا أن ننتسب إلى هذه النقابة.. ولكن في الجانب الآخر من المحكمة، فإن القانون سوف يبدل موقعهُ. ستكون عقوبتك مخففة أيها الأستاذ..

أحد العمال: ليْدفَع ثمن المشروب.. هذه المرة.

المحامي : كان اللهُ في عونكم يا أولادي... إني ذاهبٌ الآن لأرى ما إذا كانت الصحيفة قد وصلت...

«يخرج المحامي، فيحييه الجميع مسرورين لخروجه.»

مصطفى: الأستاذ لا يحب حماستنا.

أحد الموظفين: إنه رجل حر، ولكنه يعاني بعض المتاعب.

أحد العمال : إني أفضل رأسَ العبد الذي أحمله.

الأخضر : «لمصطفى» هيا بنا.. حان وقتُ العمل.

مصطفى: «يُخرج دفتراً من جيبه» فُتِحتْ الجلسة.

«عمالٌ، وفلاحون يقتربون في صمتٍ وسكون. يبقى طاهر وحده وراء المكتب.»

الأخضر : «لطاهر» سنبدأ.. حالما تغادر المكان.

طاهر : «إلى صاحب المقهى» بمثل هؤلاء الزبائن سوف تثري.

«يخرج طاهر، يتبعه بعض صغار الموظفين. يبتدئ الاجتماع بضجةٍ خفيفة، ثم يُسْمَع قسمٌ من الحديث الذي ينطلق بصوتٍ منخفض مثيراً الانتباه.»

مصطفى: ... إن «زنزاناتهم» ليست كزنزاناتنا. إنها لا تكفي أبداً لعزلِ مساجيننا. يجب أن تُهيَّأ مهاجعُ عامة رغم وجود المجرمين العاديين، مساجين الحق العام. ينبغي ألاَّ ندعهم يفاجئوننا. علينا أن ندخل السجون، وأمام أعيننا خطةٌ محكمة لتحرير جميع من فيها، حتى المجرمين العاديين، مساجين الحق العام لأنه ليس لنا أن نحكم على من يعيشون في الطرف الآخر من سلاسلنا.

«تنطفئ الأنوار واحداً إثرَ واحد. بينما ينهض المجاهدون، ويمضون كلٌ في سبيله. يخيم الظلام على شبحَيْ الأخضر ومصطفى المنعكسين على الشاشة. تبدو بحجم كبير قضبانُ السجن الحربي، وفي داخله الأخضر، ومصطفى، وحسن، مجتمعين في زنزانةٍ واحدة. يتعرف المتفرجون، على

التوالي، على وجوه السجناءِ الثلاثة الذين لن يروهم بعد هذه المرة طوَالَ المشهد. ولكنهم يسمعون أصواتهم المتمايزة، المنقولة بمكبرٍ للصوت. أمام القضبان الظاهرة بشكل مجسم، ومن جانبي الزقاق الذي تُطِل عليه كوة الزنزانة، تقِفُ جُوقةُ الجمهور على صفين متراصَّيْنِ. كل شخصيات المسرح ليستْ رمزية، ما عدا مارغريت الباريسية، التي تتميز عن المجموع بأناقتها، بغدواتها وروحاتها الحزينة وسط الزقاق. إنها تنتظر وحدها أخبار الأخضر، بينما يزاول الجمهور أعماله، يتجول، أو يغفي؛ يجري كل ذلك في جو من الانطواء على الذات.. انطواء ضروري لسماع الثلاثي الحبيس.»

حسن : لن يُعدِموك.. إنها مجرد مسرحية لحملك على الكلام.

الأخضر: لقد قالوا لي بأن ذلك سيتم غداً، في الساعة الواحدة وكأنهم ينتظرون جوابي.

مصطفى: من الصعب أن يحاط الإنسان علماً بمثل هذا النبأ. إنه لأشد صعوبة من عملية التعذيب نفسها.

الأخضر: عندما يسمع الإنسان حكم الإعدام.

يصبح الزمن مجرد ذكرى للإعدام المقبل.

الدموع تتوقف من تلقاء نفسها.

مع هدير شلال في الأعماق.

ولا يطفو على السطح إلا ذكريات آخر أيام الشتاء.

إنها ذكرياتُ المدرسة.

مصطفى: لقد كنا معاً..

الأخضر: وفي ذلك الشتاء بالذات، دمجنا أنا ومصطفى عصابتينا المتخاصمتين. وكنا السباقين الأشداء لمغادرة المدرسة، كما كنا أول من يصل إليها.

مصطفى: لقد كنت أفكر في ذلك.. كنت أفكر فيه هذا الصباح تماماً. والآن.. الآن أتحقق من أن حياتنا المشتركة لم يكن لها معنى مع ذلك قبل أن نكتشف لنا ذكرياتٍ مشتركة.. قبل أن يتأكد كل منا في أعماقه بأنه سيكون موجوداً أبداً إذا ما أُصيبَ الآخر.

الأخضر: لهذا فانني خلال تفكيري في أيام الشتاء قد أشركتك معي في سقطتي المقبلة كما كنا نشترك حين الخروج من المدرسة، زمن التزاحم والتدافع، في ذلك الوقت كنا نجهل حكم العدو.

أما الآن..

إني أشعر الآن بدمي ينبجس فوّاراً..

كلما واجهت هؤلاء الرجال...

الذين لم يتغيروا منذ تلك الأيام.

كنت أرى فيهم أعداء منذ الطفولة.

منذ ذلك الحين، كان الحقد يخنقني..

الحقد، والحاجة لأن أقف أمامهم يوماً ما

وجهاً لوجه، لأرى ما إذا كانوا قد هزمُونا حقاً...

مصطفى: لقد أدركنا منذ الصغر أنَّ علينا أن نقهرهم. فحينما قدرنا على الجري في الطريق. لجأنا إلى المقلاع، وعصابات الأطفال؛ كانوا يستعدون لضَرباتنا دون جدوى. كانت عصاباتنا تنتصر دائماً. ولكنْ لماذا نهلك نحن في النهاية عوضاً عنهم. ستكون قبورنا دائماً في انتظارهم. سيتساقطون كالذباب لمجرد غيابنا. إني أتساءل: كيف يستطيعون الحياة بدوننا؟

«يردِّد نصفا الجوقة، كلٌ بدوره، على التوالي..»

كيف يستطيعون الحياة بدوننا؟

إنهم سيتساقطون كالذباب لمجرد غيابنا.

كيف يستطيعون الحياة بدوننا؟

«وهكذا، ينخفض صوت السجين أمام صوت الجوقة المؤلفة من الجماهير، والتي تعيده كالصدى، مشيرة بنفس الوقت في نهاية هذا المقطع، إلى السجناء، وجلاديهم. في حين كان لنهاية المقطع ذاتها معنى فريد في فم مصطفى، ولم تكن لتشيرَ إلا إلى الجلادين. بعد صوت الجوقة ينطلق على الفور صوت الأخضر.»

الأخضر : لعل اقترابَ الموت هو الذي يجعل غضبنا أشد عنفاً.

أُترانا نعيش الأحلام الحربية لطفولتنا؟

أهي الحرب؟ أم أنه مجرد حُلم؟

منذ مئة عام وهم ينتزعون أسلحتنا.

لم يبق لدينا ما نستطيع به الذهاب حتى إلى الصيد.

«يردد قسما الجوقة، على التوالي، نهاية هذا المقطع.»

.. لم يبق لدينا ما نستطيع به الذهاب حتى إلى الصيد.

منذ قرن كامل وهم ينتزعون أسلحتَنا.

أهي الحرب؟ أم أنه مجرد حلمُ؟

«فترة صمت ثم يبدأ صوتُ حسن الكلام بهدوء.»

حسن : «في همس» أَلا تستطيعُ النومَ قليلاً؟

مصطفى: لم يعد النومُ من هذا العالَم،

لمن سيرى الفجرَ عارياً..

كعاشق يتحدى الليل في سباقٍ رهيب

«يردِّد قسما الجوقة، على التوالي»:

كعاشق يتحدى الليل في سباقٍ رهيب

لم يعد النوم من هذا العالمَ

لمن سيرى الفجرَ عارياً..

«يعود حسن إلى الكلام بنفس الصوت مع مصطفى في ثنائيٍ يجمِّع حوله نصفَيْ الجوقة التي تلاحق بنشيدها مارغريت.»

ونحن رفاقه في الزنزانة

نحرسُ الأخضرَ نفسه، وهو أبداً في عَجَلَةٍ من أمره..

الأخضر نفسه الذي يضيق عن آماله الزمانُ والمكان..

لقد بدأنا نتعثر منذ الآن أمام نظرته..

يبهرنا البريقُ المعدني الذي يخترقه

في لحظة السمو..

حين يجتذبُ رأسُه الصاعقةَ

ويجعل البنادقَ تنحني أمامها..

«حين ينتهي صوتا حسن، ومصطفى، المندمجان في ثنائي يجمع نصفَيْ الجوقة، من إنشاد البيت الأخير حول مارغريت، تعيد الجوقةُ كلها المقطوعةَ بكاملها متوجهةً إلى مارغريت التي تلوذ بالصمت. ثم تغزو الجوقةُ السجن بسرعة دون أن تُرَى.. بينما تبقى مارغريت وحدها في الشارع. ويعود صوت الأخضر إلى الكلام.»

الأخضر : الآن، في هذا الوقت الذي تزنُ فيه أقلُّ كلمة أكثر مما تزنُ الدمعة.

أُحِسّ جيداً بالظلم العام

أرى وطني.. أراه فقيراً معدماً

أراه مليئاً برجالٍ قُطِعت رؤوسهم

أُحِسّ هؤلاء الرجال واحداً واحداً.

أحسهم في رأسي..

فهم ماثلون أمامنا أبداً..

ولم يعد لدينا الوقت الكافي للحاق بهم.

«الجوقة، وهي ما تزال غير مرئية، تردد هذا البيت الأخير».

لأنهم ماثلون أمامنا أبداً..

ولم يعد لدينا الوقت الكافي للحاق بهم.

«بعد ذلك يعودُ صوتُ الأخضر للكلام.»

الأخضر : في كلِّ عام، في كلِّ موجةٍ عميقة من موجات أشباحنا الطعينة بلا جدوى ننطح الصخور برؤوسنا من جديد وتتجدد الخسائر.

التي يطول رثاؤنا لها..

ولكن روحنا قليلاً ما تنتحب

فنحن نمسك بالزمن جريحاً بين أسناننا، كما يفعل عددٌ من المفكرين الشباب

الذين يغيّبون أنفسهم في المعابد.

فمن وراء الهياكل

تصلنا آلامٌ خطرة

تعكر موتنا في صميمه..

«في هذه اللحظة تبرز مجموعةٌ من الجنود يدخلون السجن ويخرجون منه على الفور وهم يواكبون ثلاثة سجناء مجهولين يُعْدَمون رمزياً في الطريق، على ضوء مصباح يشير إلى الفجر ثم يترك الجنود المسرح، وتخرج الجوقة من السجن، لتدفن بحركات صُورية، الجثث الثلاث، وهي

تدمدم بصلاة الأموات. ثم تصطف الجوقة على جانبي الطريق كالمرة السابقة حول مارغريت التي ما تزال تنتظر وفي أثناء ذلك يتوقف المصباح عن إلقاء نوره على الجثث، ليعلن للأخضر الذي يبقى وحده انبلاج الصباح.»

الأخضر : لقد دنت اللحظة الحاسمة. فليتركوني أَرى ضوء النهار ولو لمحاتٍ قليلة، علني أَستطيع طرد هذه الأفكار السود التي تطبق عليّ.

لقد حانت اللحظة التي يفقد فيها الإنسان رأسه إلى الأبد.

إنه لَغَزْوٌ مفاجئ.. كلُّ ما كنت أبحث عنه أصبح يلاحقني. يبحث عني. ها نحن تحت الرياح المعاكسة الهوج.. نُحْكَمُ بحقدٍ لا يَفْتُرُ، ولا يَكِلُّ.

«يُردد قسما الجوقة على التوالي..»

ها نحن تحت لفحات الرياح الهوج، نَرْزَحُ أَبداً تحت حكم حاقدٍ لا يَفْتُرُ، ولا يَكِلُّ..

«يدخل ضابطان السجن. تُسْمّع أَصواتٌ تدل على أنهما يعذبان الأخضر.»

الضابط الأول: سينفَّذُ فيك الحكمُ في زنزانتك.

«صَرَخات الأخضر.. يتراقص نور مصباح مذعور ماسحاً جدران السجن. بينما يردد قسما الجوقة بأسى عميق.»

الجوقة   : في زنزانتك سَتُعْدَم.. سَتُعْدَم في زنزانتك.

«بعد سكون طويل يُسْمَع الاستجواب يُعَاوَدُ من جديد».

الضابط الأول: أنظر إليه.. أنظر كيف يَحْدُجُنا بنظراته. لم أرَ مثل ذلك قط.

الضابط الثاني: «للأخضر» لاحظ جيداً أننا لا نستجوبكَ إلاَّ حفاظاً على الشكليات فقط. إنَّ في نية الرئيس أن يرسلك إلى جهنم.. هيه.. تكلم..

الأخضر : «يصرخ في مكبر الصوت.» أهذا هو تنفيذكم للإعدام؟. هذا هو إذاً؟ الكلام لكم الآن.. هيا تكلموا..

«يدخل مدير الشرطة بدوره إلى السجن. إنه ضابط بدون لباس رسمي. يُسْمَع الأخضر وهو يصرخ صراخاً موجعاً أثناء دخوله. صمت.. ثم تُسْمَع نهايةُ الاستجواب»

مدير الشرطة: ماذا؟ ألم تنتهوا منه بعد؟

الضابط الأول: يُخَيَّل إليّ أنه قد فَقَد صوابه. إن التعذيب مع إنسان مثله لا يجدي. أقول ذلك مع احترامي الشديد لمقامكم. إنهم قد اعتادوا ذلك..

المدير   : لقد قُضِي عليه مع ذلك.. إن رؤى التعذيب ستلاحقه طوال حياته. إنه سيصرُخُ كالممسوس. دعه يَعُودُ إلى

رفاقه. دعه يعود إلى أمه. فعندما يرون ما حلَّ به سيفهمون جيداً.

«يغادر الأخضر الزنزانة دون مرافقة أحد. يسير متعثراً في الزقاق المكتظ بالجمهور بين صفَّيْ الجوقة مواجهاً المنظر الذي يرمز للعدو. إنه منظر مارغريت التي تنهال عليها الجوقة المجتمعة بالتهكم.»

الجوقة : «مشيرة إلى مارغريت».

هذه هي الباريسية

روحُ المدينة المفتوحة

ابنة الجلاّد

النباتُ الشرس الذي ينمو على هامات قتلانا.

هذه هي الباريسية

صاحبة الألوف، ألغرَّة.

هذه هي الباريسية

الجاهلة

الغليظة القلب

ابنة الجلاَّد

لقد تأخرتْ.. تأخرتْ كثيراً

في الانضمام إلى جانب الضحايا..

هذه هي الباريسية..

«الأخضر يمسك بذراع مارغريت. تستمر الجوقة في الدمدمة.. يجيبها الأخضر وهو يجرّ مارغريت.»

الأخضر : «مشيراً لمارغريت»

لقد تأخرتْ.. تأخرت كثيراً في الانضمام إلى معسكر الضحايا. لن أحبها أبداً.

لكنني تحسرت عليها دائماً.

«منظر الشارع يبدو طبيعياً. بائعون. نساء محجبات يبتعن حاجاتهن.. الأخضر شارداً. البائع أمام شجرة البرتقال.»

المرأة : ها هو ذا الأخضر بلحمه ودمه. كيف يقولون إنه قد مات.

البائع : برتقال حلو

برتقال حامض

برتقال مز..

بالواحدة.. بالكيلو.. برتقال.

المرأة : هات برتقالتين.. يالحيةَ الشيطان! زنهُما. أنت تفضل البيع بالواحدة، أليس كذلك؟

البائع : «متملصاً» إذا كان الأخضر هو الذي سيدفع..

الأخضر : «يسمع الحوار من بعيد» هيه.. ماذا تقول؟

المرأة : «للبائع» خذ دراهمك.

الأخضر : «يصل إلى جانب العربة» ماذا تريد مني؟

المرأة : «بصوت منخفض» اتبعني يا أخضر. سأجعلك تعود إلى صوابك.

الأخضر : «بلهجة مشاكسة» لم أسمع ما تقولين.

المرأة : «تمسك بالأخضر من يده» لِنذهَبْ!

«يبتعدان».

المرأة : مَنْ أنا؟ في اعتقادك..

الأخضر : أنتِ أختي.. أو أختُ أحد الرفاق. سيَّان ذلك لديَّ.

المرأة : وماذا تُرَى قد حدَث لنجمة؟

الأخضر : «وعيناه متجهتان إلى السماء» كانت نجمة فيما مضى كنجم الدب الأكبر بالنسبة إلي، أجدُ على هَدْيها طريقي. ثم نمتُ. فكيف أستطيعُ تمييزها في وَضَح النهار؟

المرأة : «بأسى» لَشدَّ ما تغيرتَ!.. «لنفسها» إني أفضل أن أجلسَ على شاهدة قبره على أن أراه يتخبط كالأعمى أو كالمجنون. لعل الله يُسدل عليه الليل أخيراً.

«تنطفئ الأنوار جميعها لحظة. وعندما تشتعل من جديد يتبين أن المرأة - وقد أسفرت - هي نجمة نفسها. الأخضر يختفي وراء الكواليس».

«نجمة تصحب هذه المرة مارغريت وطاهر».

طاهر : «ثملٌ حتى الموت» تؤكل الحماماتُ صغيرةً، ونيئة.

نجمة : أهذا أنت أيها الثعلبُ الهرم، بشدقكَ القَذرِ؟ لا أدري ما الذي يُمسكني عن هَرْس أسنانك؟ ما أرى ذلك يحتاج إلاَّ إلى ضربة واحدة من سواري.

تَعالي يا مارغريت، هذا الرجل لا يهمني. بالرغم من أنه هو سبب شقائي. لا تردي عليه تحيته.

«يبرز الأخضر، ويتجه فوراً إلى نجمة بينما تنسحب الشابتان.»

نجمة : «وهي ترتعد» تعالي يا مارغريت. لنذهبْ من هنا.

الأخضر : عفواً يا أختاه.. إلى أين تذهبين؟

نجمة : «تدير عينيها.» إنه مجنون. لا أود رؤيته.

«في هذه اللحظة يتسلل طاهر متخفياً. طاهر الذي كان مختبئاً خلف المسرح.»

طاهر : «تفلت منه صيحةٌ فيحبسها بين أسنانه».

يا إلهي ّ! لقد أطلقوا الأفعى إذنْ..

«طاهر ينقضُّ على الأخضر، ويطعنه بخنجره. تهرب المرأتان والقاتل، كلٌّ في اتجاه، الأخضر يترنح، ويرتطم بشجرة البرتقال ويبقى معلقاً بها لئلا ينهار.. ينتشر الجمهور حوله.»

أحد الرجال: «تهزه الشفقة» وها هو مسكين جديد يمضي...

الأخضر : «وهو معلق دائماً بشجرة البرتقال» هيه! أيها الرجل! هل تبكي لأن الثورة قد حُطِّمَتْ؟ لا. لا تبك! لا داعيَ للبكاء..

رجل آخر: لقد مات أّهلي جميعهم حرقاً بالنار. لقد حُوِّل بيتنا إلى رماد لقد ابتدأ هذا العام وانتهى بالنحس.

الأخضر : «مناضلاً ضد الهذيان» سنرقد معاً عندما تدعني هذه الشجرة أَسقط على الأرض.

امرأة : لقد كان لي ابن فيما مضى

أبغضتُ حتى اسمه

عندما يعود اسم الابن المفقود

إلى سر صباي العميق
أَراه يثقُلُ على أحشائي،
أكثر مما كان يثقُلُ عليَّ عندما كنتُ أحمله فيها،
في ذلك الزمن الذي كان ينام فيه آمناً
في حماي
قبل أن يُفصَلَ جسده عن جسدي
ويُكْرَهَ على رؤية النور،
في هذه الأرض الموحشة،
في هذه الصحراء التي لا يجد فيها فمي الجوعَ إليه.
وها أنذا أَمقت حتى الاسم الذي يطلقونه عليه،
لأنهم سيختطفونه بذلك من سرِّي
لم أَعد أَترقب مرور السنين
برغبتي القديمة في السعة والهناء
أنا التي أَضعت ثلاثةً من الفصول الأربعة
لألِدَ مسخاً يُفْلِتُ مني أَبداً.. فما أراه.

«يتجمع الجمهور في جوقة تصطف على جانبي الطريق. رجال ونساء يقفون على صفين يواجه أحدهما الآخر ليكوِّنا قسمَيْ الجوقة. النساء وحدهن يرددن بصوتٍ واحد

المقطعَ السابقَ، مستعيداتٍ لأنفسهن الانتحابات الوالدية كأنهن قد مررن بالمأساة ذاتها. ثم تكمل المرأة التي تحدثت إلى الأخضر سيل اعترافاتها التي ترددها جوقة النساء كالصدى.»

المرأة نفسها «للأخضر»: لم يكد يبلغ ابني سن المراهقة حتى رحل إلى فرنسا. ولكنني أعلم أنه عاد. ومع ذلك لم يأتِ لزيارتي. إنه ما زال يحيا في الزقاق كالأشقياء.

«هنا لا تعيد جوقةُ النساء إلا نهاية المقطع لتوسيع معناه الأصلي. كل امرأةَ تتجه أَثناء الإنشاد إلى الرجل الذي يقابلها، وتشركه في اللوم الذي وُجِّه للأخضر.»

جوقةُ النساء: «تتوجه إلى الرجال الذين يواجهونها» ما رأّينا كم تزورونا قط. لقد ثابرتم على العيش في الزقاق كالأشقياء.

«الأخضر الذي ما زال معلقاً بالشجرة يجيب حينئذ على اللوم الذي وُجه إليه سابقاً.»

الأخضر: اذهبي أيتها المرأة المسكينة.. فأمامكِ الوقتُ الكافي للبكاء.

ليس الزوجُ والولدُ إلا شيئاً واحداً بالنسبة لكِ...

لقد مات كلاهما

قبل أن تنفتح الأرض لتتلقى سقطتك. فهناك أب بالتبني واقف أبداً بالمرصاد ليجلل حياة ترملك بالسواد، ويلاحق ابنك اليتيم.

المرأة : «مقتربة من الأخضر» ماذا تقول يا بني؟ ماذا تقول هنا؟ أيمكن أن يكون سرِّي الذي بحتُ به هو سرك نفسه؟ أم أن ذلك مجرد هذَيَان، أو تنبؤ غامض!

الأخضر : لا جدوى من الكلام عن ماضيَّ...

المرأة : «تقترب أكثر فأكثر» قل لي بربك.. هل مات الأخضر؟ فالحداد قد خلق لي .. إني أوجه هذا السؤال المرّ لكل من يمرون بالنزع الأخير من حولي!

الأخضر : لن أستطيع أن أطمئنك أبداً.. أنا الفلاح الأخير.

الذي قُدِّمَ قرباناً على هذه الشجرة. لا أدري ما الذي يشدني إليها أهو الرجلُ الذي كنته؟

أم الخنجرُ الذي.. يقتلعني.

«هنا تأخذ جوقة الرجال بداية المقطع الأخير وتردده كأنه يمثلها، متوجهة إلى صف النساء الذي يواجهها».

جوقة الرجال «موجهة الكلام إلى النساء»:

لن نستطيع أن نطمئنكن أبداً.

نحنُ آخر الفلاحين.

الذين قُدِّموا قرابين على هذه الأشجار.

لا ندري ما الذي يشدنا إليها!

«الأخضر يعيد كل المقطع ويكمله، متوجهاً إلى أُمه التي لم تكن سوى المرأة ذاتها التي اقتربت منه وأدلت باعترافها من قبل».

الأخضر: لن أستطيع أبداً أن أطمئنك.

أنا الفلاَّح الأخير

الذي قُدِّم قرباناً على هذه الشجرة.

لا أدري ما الذي يشدني إليها؟

أهو الرجلُ الذي كنتُه..

أم الخنجر الذي يقتلعني..

ماذا يجدي أرملةَ أبي

أن تعرفَ أني قُتِلتُ

بيد زوجها الثاني الذي لم تختره!

هل رأيت الأفاعي التي تنشد المتعة

تتلوى داخلَ التبن؟ هكذا تتلوى ذاكرتي،

خلال حوادث القتل والنفي..

وهذا الخنجر الذي يُسَمِّرني إلى الشجرة،
إنه الانبهار الذي يُنَوِّم به العقرب الشاب
أنا المطوَّق بعوسج أصلي، ومنشئي،
لا أرى نفسي مديناً بشيء لهذا الأب الدخيل،
حتى في ذبحي، وتقديمي كقربان..
إنه أبعد من أن يكون إبراهيم الخليل.
وأنا لستُ إلا هرّاً سَلَخت جلده بومةٌ قبيحة
على أرطب غصن ..
ولا أنتظر إلا السقوط من على هذا الغصن
لأفقأ عينيْ هذا الطائر المشؤوم
المختبئ بين أغصان الشجرة التي يظنني راقداً فيها..

«قرعات طبول. تُخْلي الجماهير الثائرة المكان. لا يبقى إلا الأخضر المشدود دائماً إلى الشجرة. صوت الجوقة التي تتبعثر بعيداً».

الجوقة : يا مجاهدي الجزائر!
لا تتركوا معاقلكم..
إن ساعةَ المعارك ما تزال بعيدة..
يا مجاهدي الجزائر..

«يدخل مصطفى وحسن المسرح، وهما يتحادثان..»

مصطفى: لنذهب.. لننسحبْ إلى الجبال!

حسن : سيقدم لنا الفلاحون الملاجئ ..

مصطفى: فلنذهب.. لإعادة تجميع قوانا.

حسن : سنعود أشدَّ ضراوة.

مصطفى: «يتوقف عن الحركة» قف.. أليس هذا هو الأخضر؟

«مشيراً إلى الشجرة»..

حسن : هو بعينه دون شك.. إنه جريح من جديد.

الأخضر: مرحباً.. مرحباً بالرفاق.. لا تذهبوا دون أن تَنْبُسوا بكلمة... لا تتركوني كما يُتْرَكُ الميت.. دعوا لي بعض التبغ على الأقل..

مصطفى: إنك لا تستطيع أن تمكث في هذا الوضع «يمشي إلى الشجرة، يتبعه حسن». سنحملك من هنا..

الأخضر: «بلهجة عنيفة» ابقوا حيث أنتم! «ينكسر صوته، يعود إلى الكلام بصعوبة دون أن يخفض لهجته»! إني لم أعد أُحِسُّ الخنجر.. يخيَّلُ إلي أنه مغروس في الشجرة.. وإني أرنُّ كما يرنُّ الترسُ تحت الضَّرَبات دون أن أحسَّ شيئاً.. منذ اقتادني الموت

من كتفيَّ بلمستهَ المباغتة. ابقوا حيث أنتم، إذا أردتم نزع الخنجر فيجب عليَّ أن أدير لكم ظهري، وأتخلى عن الشجرة في حين أنني أموت هنا، لأحميها بهلاكي من البَرَد..

مصطفى: إنك تقف منتصباً في وَضْع الشنق الذي اخترته بنفسك.. وترفض أن تخطو خطوةً إلى الأمام..

الأخضر: اسأل الشجرة.. اسألها.. هل تقوى على السير.. أم أنَّ عليَّ أنا أن افتتح المسير!

مصطفى: سنحملك إذن!

الأخضر: لا تُحْمَلُ إلا الجثث.. اذهبوا.. واتركوا لي شيئاً من التبغ. «قرعات طبول..»

صوت الجوقة: «من بعيد»

يا مجاهدي الجزائر!

«ينتزع مصطفى وحسن نفسيهما من الرفيق المحتضَر».

حسن : لندَعْهُ هنا.. إنه يصارع جثته دون جدوى.. كيف يستطيع اللحاق بنا!

مصطفى: نعم.. لندَعْهُ هنا... ليس هناك أَشدُّ إِقناعاً من الأشجار بالنسبة له. إنه في صراع مع جثته..

«حسن ومصطفى يتفحصان طويلاً وجه الأخضر المظلم، الذي يحطم الصمت فجأةً، في الوقت الذي يغادر فيه حسن ومصطفى المسرح ببطء، كأنهما يتبعان موكباً وهمياً».

الأخضر : وداعاً.. أيها الرفاق!

أي شبابٍ مروَّع قضيناه!

«هنا تدخل المسرح أُم مصطفى باحثةً عن ابنها الراحل إلى المنفى. تتحسس الشجرة دون أن ترى الأخضر. ترتدي ثوب نزلاء المصحات العقلية الأزرق. وعلى رأسها ينتصب شعرها الذي لم يخالطه الشيبُ إلا لماماً. تلتمع في أَحداقها نظرة زائغة، لا تستقر على شيء. لم يعد لهيكلها المحطَّم، ولا لحركاتها المجهَدة شيء من الأنوثة. يتخلل هذيانَها من حين لآخر صَرَخات طيور مشؤومة. تلفظ اسم مصطفى بصوتٍ يختلف كل مرة عن الأخرى، كأنها تستطيع من خلال هذا الاسم الذي تحول إلى عبارة سحرية أن تمسك بصورة ابنها المتوارية..»

الأم : مصطفى.. مصطفى .. «صيحات طيور» .. مصطفى..

ألأخضر : إنه دائماً هنا .. إنه ينتظرني في هذا العالم. وأنا أنتظره في العالم الآخر..

إننا نقضي العمر يودع بعضنا بعضاً.

الأم : «وهي ما تزال في حالة تنويم» **مصطفى.. مصطفى..** «صيحات طيور».

الأخضر : «يردد كالصدى» **مصطفى!**

«صيحات طيور جارحة، تنتهي بمثل أغاريد الربيع».

«تنطوي المجنونة على نفسها، خافضةً رأسها، ثم يرتفع صوتها خفيفاً، ممزقاً.. تردد صداه جوقةُ النائحات غير المرئية».

الأم : «تجلس القرفصاءَ أمام شجرة البرتقال، التي تمسك بالأخضر». على مقعد المَصَحَ الكبير

أنا المجنونة الهاربة..

أنا الأرملة المؤجلة والأم المحجورة

«صيحات الطيور، تطلقها جوقة النائحات اللواتي يُعِدْنَ المقطع السابق. ثم يستمر الحوار بين الأخضر المحتَضَر، وأم مصطفى».

الأم : «تعود إلى تحسس الشجرة حول الأخضر».

لقد تركتُ اللَّبوءات تكبر

دون أن أتمكن من مَشْطٍ شعرها..

ذلك ما تنبأت لي به الطيور..

لقد ذبحوا الابن

وحلقوا رؤوس البنات!

ذكرى لأمهم المجنونة..

الطيور تثب هازئةً بي

هازئة بي، هازئة

بابني الذي ينتظرني على المقعد

مقعد المصح الكبير.

الأخضر: كان ينتظرني أيضاً..

في المكان الذي تهذي فيه أمه

دون أن يعبأ بمشنقتي الخضراء

لقد تركني دون أن ينبس بكلمة..

ليشدَّ جسده إلى أشجار أخرى..

هكذا تتعاقب مصائرنا..

رجالاً، ونساءً، أجساداً، وأموالاً

لا شيء يقف في وجه هذا الرحيل.

لقد أصبحت أم رفيقي أمّاً لي..

في هذه الوحشة الرهيبة الهائلة..

«تأخذ جوقة الرجال غير المرئية في الإنشاد من بعيد».

الجوقة : ويهبط الظلام.. وينحني عالمنا بأسره على نافذة العَدَم..

لا تلقوا الحجر على المجنونة..

فهي التي نهضت لتوصدَ النافذة

ولهذا تَلِفَتْ عيناها.

الأم : «تقع، ثم تحاول الوقوف، وهي هاربة».

الظلام هو السبب في سقوطي

وهذه الطيور تسخر مني..

«ينفجر مكبر الصوت صائحاً: صدمة كهربائية. صدمة كهربائية. صدمة كهربائية. بينما تضاء الشجرة بشرارة صاعقة. وفي الوقت نفسه تطلق الطيور المشؤومة صيحاتها».

إنها تسخر مني.. إنها تهزأ بي.

«تبدأ الجوقة كلها الإنشاد، بينما تقفز أم مصطفى خارج المسرح».

الجوقة : هكذا تتعاقب مصائرنا..

رجالاً، ونساءً.. أجساداً وأموالاً..

لا شيء يقفُ في وجه هذا الرحيل..

«تعصف الريح بشدة. بينما يثبت الأخضر نفسه على الشجرة، وهو يبذل جهده الأخير».

الأخضر : ما أكثر الرجالَ، والنساء الذين مروا على هذه الطريق دون أن يكترثوا لمشنقتي الخضراء.. يا للموكب الحزين الذي يرقب فيه الميتُ الغائبين.. ثم يلحق بهم..

«ينطفئ النور. يشتد عصف الريح. إنها ريح الموت. يدخل المسرحّ البائع وعربتُه تحت إضاءة خفيفة».

«يعود الأخضر والشجرة إلى الظلمة».

الأخضر : جميع العقوبات هي كعقوبة الإعدام لمن يبلغ الصميم.. صميمَ القدر..

هنا يتلخص وجودي في نسمة

أما لساني الذي نَمَتْ عليه

الطحالب أخيراً..

فسيكون غذاءً للكون بأسره..

عليَّ الآن أن أتقيأ كل شيء..

الآلام، والهموم، والأوهام، والعلوم.

عليَّ أن ألفظَ كل شيء كالمحيط..

يتقيأ اللآلىء، والجثث..

عليَّ أن أمضي إلى الاعترافات..

إذا ما أردت الانطلاق خاويَ الوفاض..

إلى الجانب الآخر من القدر..

حيث لا يدخل قناع المأساة

ولا جمهور، ولا مارَّة..

هناك في أحضان الأعالي العذراء

حيث تفيض القبلةُ بعطائها فتنقلب نجمة..

حيث تبلغُ ذؤاباتُ الشَّعر القَدَم..

حيث المعرفةُ سطوعُ برقٍ أَمين..

وحيث الحبُّ ليلةٌ واحدة بلا ذكريات..

«ظلام.. ضوء.. قرعات صنج مديدة.. البائع نائم تحت الجدار. الأخضر مستند إلى الشجرة»..

الأخضر: هيه.. أيها النائم!

البائع: «دون أن يرفع رأسه». تابع كلامك يا بني! أنا لا أومن بالأشباح مطلقاً. تستطيع أن تختبئ خلف الأشجار. لقد جاوزت سنّ الخوف..

الأخضر: «مهمهماً بين شفتيه»

دائماً في لحظة الاعترافات.. يبدو المسرح خالياً. ليكن ذلك. سأكون أنا الزنزانة كلها.. إن الغائب

الوحيد الذي ما يزال يثقل علي من بين الغائبين بدون مبرر هو أبي.. أبي الذي جيء بجثمانه مدرجاً في لحاف في حين كنت انتظر منه نهاية قصة، ونهاية حلم طالما اختلطا في مخيلتي..

لقد انغمس ذات يوم في الخمارات، بصحبة السكارى والمجرمين. كانوا كلهم يبحثون عن أجنبية بارعة الجمال واسعة الثقافة. كانت على درجة من الجمال والتحفظ جعلت أصدقاء أبي يقتتلون حتى الفجر ليشقوا لهم طريقاً بين الجموع، ويلحقوا بها في الفندق الفخم الذي يستقبلها فيه عشيقها. كان أبي هناك.. يتآكله الحقدُ والغيظ، وهو يقتفي خطوات هذه المرأة التي يلاحقها الناس باحترام في الأعراس. لقد جرح في ذلك اليوم جرحاً بليغاً بموس حلاقة ألقاها في وجهه رجلٌ عجوز من إحدى النوافذ، بينما كان أبي يرقب المحْظية اللعوب، ويُلْقي في وجوه أصدقائه بثآبيب من الدم الثَّخين الملتهب..

ولم أستطع أنا بدوري أن أمتنع عن إطلاق صرخات أليمة، لا لشيء، إلا لأخفف عن نفسي وقع العار، والنزوات التي غاص فيها أبي حتى الأعماق. كنت

في ذلك الحين قد ولدت، كنتُ أصرخ ليلاً ونهاراً لأشير إلى الرجل النذل الذي يحملني بين ذراعيه ليعرضني أمام موضوع حقده وغيظه، أمام الأجنبية التي لم تكن لتغفل الظهور أمام نافذتها في الساعات المتأخرة من الليل، حيث كنت أعوي من النعاس.. ومن هذا الهوى الجامح الذي يحمله أبي.

وأخيراً نزلت الأجنبية بخطواتٍ رشيقة، الأجنبية بلحمها، ودمها، بوجهها غير النقي، وحركاتها التي كان الحشد يتأملها وكأنها طقوس عبادة.. المرأة ذات العطر المجهول، التي أحاطتني بذراعيها بينما رحت انشق أثقل وأجمل أثدائها.. (كان يبدو لي أن لها أثداء أخر، لأنها لا تشبه أمي التي لها ثديان فقط..) ووقف أبي مسمراً أمام الأجنبية التي كانت تداعبني باسمة، وأمام الناس الآخرين الذين كانوا يتوقفون عند هذا المشهد الفريد.. وقف غارقاً في صمت كان يملأني بالندم والغيرة. أنا الطفل الذي لم يتجاوز عمره السنوات الست.. والذي أصيب بأهواء والده، أنا الذي كنتُ أقوى منافسيه في الوقت الذي لم تكن أسناني جميعها قد ظهرت.. أنا الذي لم أشأ أن أصدق أن تلك

الأجنبية قد اختفت، وأن أبي قد أُدْرِجَ في لحاف وحُمِلَ إلينا بينما كنتُ العبُ في الشارع مع نجمة.. نجمة ابنة الأجنبية التي اختطفها والدي.

«عند هذه الكلمة الأخيرة يهوي الأخضر أمام شجرة البرتقال المصعوقة.. تضاء الأنوار.. يتسلق عليّ شجرة البرتقال.. تلاحقه نجمة.. قرعات صنج مديدة.. تختفي جثة الأخضر رويداً رويداً.. تحت سحابةٍ من الأوراق اليابسة. يجلس علي فوق قمة الشجرة، ويدلي ساقيه من عَنْ طرفَيْ الغُصُن. يقتطع غصناً ذا شعبتين ليصنع منه مقلاعاً».

نجمة : انزل من هنا! ألا تريد النزول؟ هيا انزل.. واعطني هذه المدية!

علي : أنها مُدْيَةُ والدي.. إنها مُدْيَتي..

نجمة : لماذا حشوتَ جيوبَكَ بالنارنج؟ أَلْقِ به إلى الأرض! ألم أَقُلْ لك مائةَ مرة إن هذا البرتقال مسموم؟ هيا.. انْزِلْ..

«يبقى عليّ فوق الشجرة، يغـرفُ برتقـالات مـن جُيُوبـهِ، ويضعها في مِقْلاعهِ، ويصوِّب باتجاه الجمهـور. مَطَـرٌ مـن البرتقال في الصالة.. يُنْزَل الستار الذي تنهال عليـه ضَـرَبَاتُ المِقْلاع.. بينما يُسْمَعُ صوتُ الجوقة يدمدم من بعيد»:

يا مجاهدي الجزائر.

لا تغادروا معاقلكم..

«ظلام.. نور.. قَرَعاتُ صنج مديدة».

(انتهـــت)

الأجداد يزدادون ضراوة

«هذه المسرحية تكمِّل برموزها، وأحداثها مسرحية «الجثة المطوقة» إنها تبلغ بأبطالها مرحلة الثورة المسلحة، الحرب التي تعبئ كل طاقات الشعب الجزائري لانتزاع حريته واستقلاله»

« المترجمة »

«حجرة في السجن، ساعة التفقد».

الحارس : محمد بن صالح

صوت في العتمة : حاضر.

الحارس : عمر عمَّار بن علي.

صوت في العتمة : حاضر.

الحارس : محمد بن أحمد.

صوت في العتمة : حاضر.

الحارس : مصطفى بن محمد.

صوت في العتمة : حاضر.

الحارس : هل عينتم مناوب الليلة؟

حسن : «مشيراً إلى مصطفى». هو. إنه متطوع.

الحارس : «لمصطفى» كيف ذلك؟ دائماً أنت؟ دائماً متطوع للسهر؟

مصطفى: ما دمت لا أستطيع النوم، فاني أسهر.

«ينسحب الحارس ويغلق الباب. المساجين نائمون على محاذاة الجدران. ملابسهم تحت رؤوسهم. همس. أصوات.

يشير إليهم مصطفى من مكانه بأن يسكتوا. بعد صمت قصير تتردد همسات جديدة. يقف حسن فجأة ويأخذ في السير موزعاً ركلاتٍ بقدميه. لا يتوصل إلا إلى إقامة صمت مؤقت. تستمر الهمسات».

حسن : وبعد، ألا تريدون إقفال هذه الأشداق؟

«هدوء مصطنع».

حسن : «لمصطفى» أشعل قداحتك.

«مصطفى يمتثل».

حسن : هل الجميع نائمون؟. حسناً، سأبدأ.

«يذرع حسن الغرفة عدة مرات بخطوات رياضية ماراً على بطون الرجال الذين ينامون جميعاً في وضع التهيؤ كما لو كانوا مستعدين لهذه الطقوس العقابية الغريبة. لا صوت ولا تنهد. يعود حسن إلى مكانه. صمت. لم يعد يُرى إلا لهب القداحة الذي يضيء مصطفى. قرعات صنج مديدة. يذهب حسن بخطوات ذئب لإيقاظ مصطفى. يهبُّ هذا واقفاً بحركة آلية ليقف موقف السلم القصير لحسن الذي بدأ يحك السقف بآلة حادة غير متقنة. تمر فترة. ينبلج الفجر. ضوء على حسن. يقفز نازلاً على قدميه».

مصطفى: لم ننته بعد. ولم يَحِن يومنا بعد.

حسن : «وهو ينزل على قدميه». سنستأنف العمل هذا المساء.

«يستيقظ الرجال. ظلام. قرعات صنج مديدة. نور يضيء حسن ومصطفى. يتكرر المشهد السابق بسرعة. يُرى حسن وهو يَفرغ من ثَقب السقف وقد أدخل رأسه في الفتحة حينما ينهض المساجين على أثر إشارة معينة ويحيطون بالمتآمرين».

المساجين : ونحن! ونحن! أتراكم تتركوننا هنا؟

مصطفى : «رافعاً عموده الفقري» كنت أعرف جيداً أنهم جميعاً على إطلاع..

حسن : «دون أن ينزل» أصغوا إليَّ. لديَّ ثلاثة أشياء أريد شرحها لكم. أولاً، يوجد هنا جواسيس. ومعنى ذلك أن تقريراً سيقدم بالحادث، أو أنه قد قدم بالفعل. ربما كانوا ينتظروننا عند باب الخروج. وهناك تعد الرؤوس المحترقة. في هذه الحالة سيصرعون عدداً منا ونحن بالجرم المشهود، ليخلوا مكاناً لغيرنا. إن السجون تعج بالنزلاء. ثانياً: لدينا من الوقت ما يكاد يكفي، والعمل لم ينته بعد. ما يزال أمامنا اجتياز الساحتين، والسور الكبير. إن الحبل الذي نملكه قصير جداً، فهل لديكم حبال أخرى؟.. ثالثاً:

احذروا الضوضاء. كلٌ يخرج بدوره، وعندما نصبح خارجاً سنتفرق؛ ولن يتعرف الواحد منا على الآخر.

«يشيع التردد بين الرجال. تُسمع كلمات: «إنه على حق»، أو «سيقضى علينا ثانية»، بينما يُرى حسن وهو يختفي في السقف. ظلام. نور. قرعات صنج مديدة. لا يرى من قلب السجن إلا واجهة جدار. تسمع خطى رجال عديدين تواكبهم ثلة من الجنود. تسير القافلة محاذية جدار السجن تحت أبصار الجوقة التي تجلس القرفصاء في مقدمة المسرح، بين الأطلال الخالدة التي تميّز الجزائر. تتكون الجوقة من رجال ونساء وهي تُمثل دوراً مبهماً. إنها تحاول أن تتوارى عن أعين الجنود وتثبت وجودها بقوة وجهاً لوجه أمام الجمهور».

المنشد : مزيد من السجناء.

الجوقة : مزيد من الجنود.

المنشد : إنهم يتجهون فوراً إلى الميدان المضلع.

الجوقة : الميدان المضلع؟..

المنشد : نعم هناك، حيث يتم الإعدام..

الجوقة : الميدان المضلع، الميدان المضلع، الميدان المضلع.

المنشد : لقد حسبوا كل شيء. إنهم يقضون وقتهم في اتخاذ التدابير ضدنا. إن للمضلع في الهندسة معاني كثيرة..

الجوقة : هناك، في المكان نفسه، حيث يجري تنفيذ الإعدام، هناك معسكر التجميع..

مصطفى: «يبرز من بين الجوقة مقنَّعاً.» هذا صحيح، لقد كنت هناك منذ عشرة أعوام.

المنشد : نحن أغنياء بالميادين المضلعة.

الجوقة : هذا فضلاً عن المقابر.

المنشد : نحن نتكلم عن الأراضي المهملة. أما السجن.. فهو ترف، بانتظار السلم.

المنشد : «بلهجة المعلم.» كل أرض هي ميدان مضلع. كل البلاد هي ميادين مضلعة مرسومة (مسجلة) على سطح الكرة الأرضية، هناك مضلعات منتظمة، مسدس مثلاً كفرنسا.. وهناك غير المنتظمة.

«صمت، قافلة جديدة من المساجين تجتاز المسرح.»

المنشد : مزيد من السجناء.

الجوقة : مزيد من الجنود.

المنشد : آه! لو أن السجناء يحملون أسلحة..

الجوقة : لو نستطيع تجريد الجنود من أسلحتهم!

«لدى هذه الكلمات، ينفصل حسن عن الجوقة وهو مقنَّع، ويُظهر سلاحاً مخبأ تحت سترته.»

الجوقة : «بدهشة شديدة» إنه مسلح!

حسن : هل تعرفون طاهر؟

المنشد : طاهر؟

الجوقة : آه، نعم، طاهر، طاهر، سي طاهر..

المنشد : سيدي طاهر.. إنه قلب حنون، يجد الفقراء عنده «الكسكس[1]» كل يوم. ولكنه يقطن بعيداً لسوء الحظ..

حسن : إذن أنتم تعرفون أين يقطن؟

«ظلام. نور. تختفي الجوقة. حسن ومصطفى في مقدمة المسرح بلباس ضباط من الجيش الفرنسي.»

حسن : في الحياة، وخاصةً في الحرب، مع الشعب أو أمام العدو، يتحتم علينا أن نمثل كل الأدوار..

مصطفى: إنك تملك حساً مسرحياً، أما أنا فلا. إن لي مشية دواب الحراثة.

---

(١) طعام مغربي معروف.

حسن : لا تتصنع البراءة. لقد ترقينا في الرتبة. سنكون في الجانب الآخر، ولكن لفترة قصيرة ريثما نقوم بزيارة سيدي طاهر. إنه رئيس رابطة أمينة «للوطن الأم[1]». إن ممتلكاته الواسعة تحرس ليلاً ونهاراً من قبل الجيش. نعم، إننا سنستقبل بالتكريم اللائق برتبنا العسكرية..

«ينتقل النور. يبدو مناوب يقوم بالحراسة. جنود يظهر عليهم الضجر، والغيظ لإلحاقهم بالخدمة لتأمين سلامة إحدى «الدمى» الاستعمارية. هذه الألعوبة هي طاهر الذي يتربع وسط المسرح، وهو يتناول فنجاناً من الشاي مع قطع صغيرة من الحلوى. وجهه مشرق، أصابعه مثقلة بالخواتم، عمامة ضخمة تجثم فوق رأسه. في إحدى يديه مروحة، وفي اليد الأخرى مسواك للأسنان. تتحرك أصابع رجليه في خف ناعم. يبدو هادئاً مطمئناً، يوحي بالوجاهة. إذا تعب من المروحة أو ضاق ذرعاً بالمسواك لجأ من وقت لآخر إلى المسبحة تحت عين الجنود الساخرة. تمر فترة تتوضح فيها شخصية طاهر بكل سماتها. ثم يدخل حسن ومصطفى. تؤدى لهما التحية العسكرية من قبل ثلة الجنود الواقفين في وضع التهيؤ. يتجهان رأساً إلى طاهر الذي يهبُّ واقفاً».

(١) إشارة إلى فرنسا. «المترجمة».

حسن ومصطفى «يسلمان»: سيدي الرئيس.

طاهر : «يجيب بكلتا يديه.» سيدي الكولونيل.. سيدي الكومندان..

مصطفى: إننا بحاجة إليك لأمر عاجل. نحن في اجتماع في غرفة الوالي لإعداد الانتخابات.

طاهر : «متلمظاً.» آه، نعم، هذا.. صحيح. إنها الانتخابات..

حسن : أنت رجلنا..

مصطفى: تفضل بسرعة، العربة في انتظارنا.

طاهر : «متظاهراً بالخجل» سيدي الكولونيل، سيدي الكومندان..

«ظلام. نور. المسرح خالٍ. يدخل حسن ومصطفى وهما يدفعان طاهر أمامهما.»

حسن : امشِ، أو انفق[1]..

مصطفى: يمكننا التوقف هُنا..

طاهر : سيدي الكولونيل.. سيدي الكومندان..

«يتوقفون، حسن يدير الاستجواب، مصطفى يقوم بالحراسة.»

حسن : لنبدأ من البداية. يُقال إنك تعرف كثيراً من النساء.

طاهر : «يعاوده الاطمئنان» إنها إذن قصة نساء؟

(١) نفقت الدابة: هلكت.

«عند هذه الكلمات يرمي حسن قبعته، ويتبعه مصطفى. يبقى طاهر مبهوتاً لحظة. ثم يأخذ في التلاوة وهو يرتجف.»

طاهر : لا إله إلا الله.. محمد رسول الله..

حسن : ستقوم بصلاتك فيما بعد. حدثنا عن هذه المرأة.

مصطفى: لا تتعب نفسك بالكذب؛ نحن نعرف..

طاهر : سي حسن، سي مصطفى، يا أولادي!

حسن : بلا تدجيل.. إننا نستطيع أن نقودك دائماً من أنفك أنت وأمثالك بقبعة وشارةٍ عسكرية. بالمناسبة..

«يقترب حسن من طاهر ويستل مديته، يعترضه مصطفى.»

حسن : لن تبدد الذخيرة سدىً، فإما أن نذبحه أو أن نشوهه. تذكَّرْ الأخضر!

مصطفى: إنني أتذكر. لقد كان معنا، في أول مرة سُجِنّا فيها أنا والأخضر، شخص جدع أنفه في قضية شرف. (إن الشعب يسمي الأنف دائماً في لغته العامية عضو الشرف، أو النيف كما يلفظونه.) ولكن جدع الأنف لم يُغيِّر منه شيئاً. لقد بقي دوماً بنفس الدناءة، لم يتطرق إليه الندم بسبب تبرير حقده في المرة السابقة، وانطلق يتمرغ في الوحل باحثاً عن قذارة جديدة.

أتعرف لماذا كان هناك في السجن، مع المناضلين؟

لقد سجن لأنه قتل طفلاً يهودياً عمره ثلاثة عشر عاماً. كان هذا اليهودي رفيقي ورفيق الأخضر في الطفولة. كان القذر يعتقد أنه، بهذه الفعلة، سيسترد اعتباره.. إذ من العسير استرداد أنفه المجدوع.

ستقول لي: عقاب هزيل. لم يكن لأحد أملٌ في تغيير هذا الوغد. كانوا يريدون أن يجعلوه عبرة. ولكن للشعب حاسة شم قوية. إنه سيدرك بفطرته عاجلاً أو آجلاً أننا قد أضعنا وقتنا. إذا لم يكن للخونة أنوف، فلماذا نحرمهم مما لا يملكون؟

حسن : ما أراك في النهاية إلاّ واعظاً بالعفو التام على ذكرى هذا اليهودي الصغير!

مصطفى: دعني استجوبه.

طاهر : «يذرف الدموع» آه، يا ولدي!

مصطفى: هذه المرأة.. هل رأيتها بعد ذلك.

طاهر : «مسايراً» من زمن بعيد.. بعيدٍ جداً..

مصطفى: أين هي؟

طاهر : والله.. لا أعرف. كونوا إنسانيين..

حسن : إنه سينتهي بإعطائنا درساً في الأخلاق.

مصطفى: أين هي؟

طاهر : لا أدري، لا أدري، ورأس ابني!

حسن : أي ابن؟

طاهر : «مستدركاً» الأصغر..

«يفتح حسن مديته.»

طاهر : إنها امرأة غريبة. يقولون إنها عاشت في فرنسا، في حانة، وعاشت هنا مع زنجي..

مصطفى: أكمل!

طاهر : أما الآن فإنها تحشر نفسها مع ابنها، وهو «شقي» صغير في أحد الوديان.

مصطفى: وادٍ؟

طاهر : إنهم يطلقون عليه وادي المرأة المتوحشة. نعم إنهم يروون أشياء كثيرة. يقولون إنها قد رَوَّضَتْ عقاباً.

حسن : عاد يظننا طفلاتٍ صغيرات.

طاهر : «منساقاً ببساطته القذرة، ولكنها بساطة حقيقية، أساسية» اسألوا! سيقصون عليكم قصة العُقَاب الذي يأتي لرؤيتها، والذي أطلقت عليه اسمه..

مصطفى: اسم من؟

طاهر : «قلقاً كأنما تكلم أكثر مما يجب» اسم...

مصطفى: «يشهر سلاحه» أي اسم؟..

طاهر : «أقرب إلى الموت منه إلى الحياة» الأخضر!

«عند هذه الكلمة يطلق مصطفى النار. يهوي طاهر صريعاً»

حسن : مرحى! لقد خلَّفتني بعيداً إلى الوراء. أنا أفهم ذلك. لقد أردت أن تثأر للأخضر بيدك. ولكنك ستندم على هذه الرصاصة.

«ظلام. قرعات صنج مديدة. نور. تستمر الحركة دون توقف، في ظل شجرة برتقال برية تغطي ثمارها الأرض، وتعطي جو المكان المفجع طابعه المتآخي، تقف امرأة مشعثة الشعر، حافية القدمين، لا تترك خمارها الأسود بحيث لا يمكن تمييز ملامحها إلا بصورة خاطفة، عندما تهتاج».

جوقة الصبايا: «تدخل المسرح» ها هي ذي.. ها هي ذي!

المنشدة : ها هي، شجرة البرتقال!

الجوقة : نعم، ها هي شجرة البرتقال، ذات الثمار المزة.. إنها الخصب العقيم لهذا البلد.

المنشدة : «مشيرةً إلى المرأة» وها هي ذي بذاتها. إنها ما تزال تحت سيطرة الشيطان.

الجوقة : «تنشد»

هيا بنا نحج

إلى وادي المرأة المتوحشة.

المرأة المتوحشة: «منتفضة»

ماذا تُرِدْنَ مني؟

المنشدة : نحن وحيدات.

الجوقة : نحن وحيدات.

الرجال في الحرب،

كلهم في الحرب، أو في السجن، أو في المنفى!

المرأة المتوحشة: «تفكر» وحيدات، لقد كنا دائماً كذلك..

ولكننا الآن وصلنا إلى نهاية الحساب

وهذه هي اللحظة الحاسمة التي لا تعود

الجوقة : آه، نعم، حدِّثينا، تكلمي!

المنشدة : نحن وحيدات، قولي لنا ماذا تحدثك به وحدتك!

المرأة المتوحشة: إنها اللحظة الحاسمة التي لا تعود، إنها الحرب، لننتزع حريتنا..

المنشدة : «بوجل» حريتنا؟

الجوقة : «بحماسة» نعم، نعم، نأخذْ حريتنا.

المرأة المتوحشة: لقد آن أن نضيفَ الضراوة إلى ميزتينا الاثنتين:

الحِداد، وحمل الأعباء.

لِنَسِرْ نحن أيضاً إلى القتال.

«فترة، المرأة المتوحشة تثبت بصرها في نقطة ما من الفضاء. تبدو وكأنها تنتظر إشارة. الجوقة التي تؤمن بالخوارق، تتعلق بنظرتها.»

المرأة المتوحشة: هل أنتن على استعداد؟ أَتُرِدْنَ أسلحة؟

المنشدة : «بقلق» أسلحة؟

الجوقة : «بهياج» نعم، أسلحة..

المرأة المتوحشة: أُنظرنَ! «تشير إلى صورة عُقَابٍ في صدر المسرح يحوم على واجهة جدار يقوم مقام الشاشة.»

الجوقة : العُقاب، العُقاب.

المرأة المتوحشة: حيث يحوم العُقاب، تكون ساحة الجثث غير بعيدة، وحيث ترقد الجثث ترقد الأسلحة.

«فترة، ظلام مطبق، لا يُرى إلا العُقاب الذي يحوم في دوائر كبيرة على الشاشة. ثم يسمع صوت رزين بعيد، تفصل بين عباراته قرعاتُ الصنوج.»

العُقَاب : أيتها الصبايا، إنكن لا تستطعن سماعي.

وأنا لا أَقْوَى على الكلام.

هذا القلب الفولاذي الذي يتحطم

قد فقدتُ مفتاحه

بين يدي هذه الساحرة التي تحرضكن.

لكَمْ كانت ماهرةً في التلاعب بمصيري!

لا أستطيع أن أقول

كم يكون الموت في الحب عطوفاً

لا ينبغي تعجُّلُ الخطى مع العذارى.

ولكن ما دمتن ذاهباتٍ إلى المذبحة

فإني لا أستطيع، أنا العقاب،

أن أحوِّلكن عما ترِدْنَ.

سأسهر، لأختطفكنَّ من ثعبان القبر.

من جليد العَدَم في مسرحية الجثث المجهولة.

وآمل أن أنقضَّ قريباً على المتوحشة، بعد أن أتخلص

من الأجنحة التي توهنني.

حينئذ، لن أضطر للنهوض.

بعد أن أكون قد انتزعتُ نفَسَها الأخير.

هكذا كانت، وهكذا ستبقى الخاتمة الوحيدة التي أرغب فيها..

طقس معجز، عرائسي وجنائزي

حيث تُرَدُّ الروح إلى المختفي

وتولد الأرملة من جديد.

«فترة. نور ضعيف على الجوقة الخائفة التي تهمس.»

المنشدة : ما أغربَ هذا الطائر!

الجوقة : لم نره عن قرب مثل اليوم.

«يزداد الخوف بين جوقة الصبايا اللواتي يتزاحمن حول المرأة المتوحشة الصامتة، والتي تبدو كأنها غائبة تحت شجرة البرتقال.»

العُقَاب : واأسفاه! عبثاً أُحاولُ أن احتفظ بأبعادي الشاسعة

وأن أبقى في لغزي.

إني أوحي بالرعب.

لماذا لا نستطيع ونحن على الكوكب نفسه أن نشعر شعوراً مشتركاً بالسفر الخليط؟

الجوقة : «تترقب كلمة من المرأة المتوحشة.»

ما أغرب هذا الطائر! ما أغرب هذا الطائر!

المرأة المتوحشة: «تضحك بعصبية»

إنه يأتي من الشرق، ويستقر في الغرب، ذلك اللغز الشمسي، الصحراء مَقَرُّه الطبيعي.

وهو إلى ذلك نَحَّات كبير للهياكل العظمية. إن العقاب الأسود، والأبيض يعد نفسه فناناً..

العُقَاب : لا يهمني إنْ فاتكن سماعي فستتلَقَّيْنَ عن طريق صوت آخر جوابي الذي يحمل على اليأس. أيتها الصبايا، أيتها الصبايا المفتونات! هديتي إليكن أن أُسْلِمَ ذاكرتي للذبول، لأجلكن أيتها العذارى اللواتي جَعَلَتْكُنَّ الحرب، والمنفى، وحيدات لكي تستطيع الأسطورة أن تنزح الملح من ابتساماتكن الجاحدة. الملح الذي يهب الجرح طعمَ القوة.

أريد أن اقترب منكن أمام تلك «المنزوية» وتحت بصرها الجارح. وفي عصفة الرياح.

نعم، ها أنذا أهبط قابلاً للتجريح بشكل ساخر. وقد تَسَرَّبَتْ فيَّ من كل الجهات أضعف أفكارها. تسربت فيَّ زهراً وجذراً.

وها أنذا استيقظ، وقد التصقنا معاً كزوجين لا ينفصمان. كل منا يمضي لياليه في أحلام الآخر.

«أثناء هذه النجوى، لا يتوقف العقاب عن التحويم. ترفع المرأة المتوحشة عينيها إليه متأثرة بما قال. وهي تظهر علامات اضطراب. يعكس العقاب ظله الضخم عند المقطع الأخير على الشاشة، وأجنحته مبسوطة.»

الجوقة : «مشدوهة» العُقَاب العُقَاب، إنه يهبط.

المنشدة : إنه يتردد في الهبوط.

الجوقة : إنه يتردد أيضاً في الابتعاد.

المنشدة : «بسخرية مصطنعة» لقد عبَّ كثيراً من الأثير.

«ظلام مطبق يلف كل شيء حتى الشاشة. لا يرى أي شيء.»

العُقَاب : من بين جميع النشوات.. أعرف النشوة الطاغية، القاتلة، ولكني أعود إلى النجمة المظلمة أفضي إليها بشكوكي. وأزمجر غير مفهوم نحو تلك التي لا يفهمها أحد، كما يكتشف المرء ضحية ظنها ميتة، وكما يتنفس المرء في العناق دماً حاراً مخيفاً لِشدة قربه وكأن المرء في الالتحام الجسدي، يحس أنه قد افترس نفسه في فم آخر.

«فترة. قرعات صنج. أنوار تسلط بقسوة على المرأة المتوحشة الراكعة التي تبدو أشد انطواءً على نفسها في خمارها الأسود، وسط الصبايا المضطربات. تنهض أخيراً وتصب لعناتها على العُقَاب رغم أن صورته لم تعد تُرَى على الشاشة.»

المرأة المتوحشة: كلا. أنا لا أبكي.

لقد أمضى حياته كقاطع طريق

كقاطع طريق فتّاك.

لقد عاد خياله

وهو يهيم على وجهه من جديد في حرية مؤقتة.

لقد كسر كثيراً من الزنزانات ولم يفعل شيئاً سوى الهرب، مغادراً قبره كما كان يغادر سجنه من قبل، مضاعفاً دائماً عقوبته.

إن رأسه يتدحرج في قلبي محدثاً ضجيج سقوط أبدي

نعم، إن هذا الحجر الوحيد يكفي لرجمي.

إن جرماً من أجرام السماء يمسني ويرجمني.

إنه هو، إنه هو دائماً يعود إلى فضائه المنيع الذي لا يناله فيه قصاص.

إنه يثيرني في ظل وطن الأموات.

وكل ألوان الشؤم تأتي منه، من هناك...

جوقة العذارى: في ظل وطن الأموات..

«فترة. يظهر العقاب من جديد محوِّماً في دوائر كبيرة.»

العُقاب : لم يعد هناك حب، لم يبق هناك أحد، لم يبق إلا أنا..

لم يبق إلا أنا.. أنا طائر الموت، رسول الأجداد.

جوقة العذارى: «تهرب دون أن تغادر المسرح»

طائر الموت.. رسول الأجداد..

المرأة المتوحشة: «بتوسل» أيها العُقاب. ابتعد من هنا.

العقاب : آه، لو لم يرسلني قبلوت القديم، جدنا المشترك، لكنت وضعتُ حداً لهذا الإخلاص أثناء الفراق الذي يثير السخرية ولكن، عليَّ أن أقدم حساباً عن إحدى الجثث، وأعيد الأرملة إلى القبيلة، وأدلَّها على الطريق المشؤوم الذي يحاذي ساحة الجثث، «وهو يتجه نحو مغارة القبلوت وكل من يلوذ به». الويل لها إذا ما تأخرت! إنها ستجد هناك أكثر من عشيق، وأكثر من أخ، وسيتفاقم الخصام آنذاك ويتصاعد حتى الأجداد، حتى قبلوت الراقد في قبره، حتى الكارثة. أما أنا، وقد فتنت، فسوف أتقمص دور العشيق. وها إني أُمَدِّدُ قيدي

الطويل من جديد بعد أن رُدِدْتُ بمرارة إلى الحياة، هادماً حتى اللانهاية تلك الصورة النهائية العزيزة.

أنا لي قلب أيضاً. إنني كطائر أملك قلباً ثقيلاً، وبما أن النار تهددني فمن الممكن أن أنفجر وأنا في حومة الطيران حتى ولو اختطفني دوار الجو، ذلك الشبح الضاري، من يديْ هذه «العنيدة» وألقاني بعيداً..

جوقة العذارى: «تدور في حلقة، هازئة بالعُقاب» دوار الجو، دوار الحب، دوار الجو لا دواء له.

المرأة المتوحشة: «مذعورة» ابتعد أيها العقاب، أنا أعرف، أنا أعرف أنك الأخضر القديم. أنت الحيوان الهائل الغريب الذي اقتاتَ من جثته. أنت طائر الأجداد، نبعُ الدم الأسود.. أنتَ الطائر النهِم المطهّر الذي جعل غذاءه من جثث قبيلتنا كلها. أنت الأخضر القديم، الجثة المطوقة، التي يحوم طيفها كروح تبحث عن جسدٍ آخر...

العُقَاب : «ينحطُّ قليلاً من علوه» هذا الجسد الحي هو أنتِ.

جوقة العذارى: «مبتعدةً»

أي ميثاق يربط هذه المتوحشة بطائر الموت!

المرأة المتوحشة: من طول ما مكثتُ وحيدة، تعلمتُ،

في حالات ذعري،
لغةَ الأشباح.
وفي انتظار عودته، تعودتُ
الرعبَ، والشك..
إنه يحب أن يتنكر..
كالكحول الذي يلعب بالرؤوس
يعرف أن يسير في الأوردة
التي سوَّدها بضلاله
إنه يعرف أن يشرب معي
وينازعني سُمَّه.
لم يَدَعْ لي شيئاً.
إن طفله اليتيم، مثله، شَبَحٌ مصغَّر يذرع الطرقات..
لم يبق لي منه أدنى تذكار.

العُقَاب : أنا الذي فقدتُ بَصَري، لا أعرف من ينيرني.
أنا الذي تعذبني تلك المتوحشة بصمتها.
لم أعد أعرف كيف أختفي، ولا كيف أفرض رأيي.
قولوا لي: هل أنا ميتٌ حقاً؟

لقد حاولتُ عَبَثاً أن أطير. إن شبحي يعيث في دم المرأة المتوحشة، وأنا سكران، سكران كما لم أكن في أي وقت آخر.

لم أحسَّ الحزنَ في خمرتي يوماً كما أحسه الآن.

حقّاً أيتها الصبايا.. إني أبلغ بنشوتي الأثير.

إن الفصول نفسها، بعد خريف غاصب كهذا، لم تعد تعرف كيف تتعاقب إلا في موكب فاجع.. لا بنفسجَ متوجعاً، يبقى عطره كعطرها على الدهر. إني أتهم بشدة، كما تتهم هي، كل تلك الدموع.. دموعها التي لا عدد لها..

ماسات العين التي تخلد في سهامها.

سواء بكت لحرمانها من الفريسة،

كما يفعل القرش،

أم لأنها تتصاعد فيَّ كالجثة!

الجوقة : إنه ينحطُّ من عليائه. لقد عبَّ كثيراً من الأثير، ذلك العُقاب الأسود، الأبيض.

العُقَاب : أيتها الصبايا، شريكات المتوحشة في نظراتها المجنونة. أيتها المنسيات في منفاها المُدَوّي.

أتراني أرى جمالاً أشد سوءاً منكن في طريق العودة؟

أسوف أرى المترددة تحدد مطالبها؟

ولكن ماذا يجدي البعث لمن سيموت!.

على عتبة جنة مظلمة يرقبنا الشقاء القديم.

ما أكثر الذين طعنوا بالخناجر.

بين أولئك الذين خاطروا بأنفسهم.

ليروا «الأرض الموعودة»!!

ولكنَّ هذا الخنجر هو مفتاح «اللقيا» ..

«فترة.. ينخفض النور. رجلان متنكران يسيران متمسحين بواجهة الجدار، ويحجبان أثناء وقوفهما صورة العُقاب. يلقيان أسلحة باتجاه الجوقة. وبالمقابل، تلقي الصبايا مجوهراتهن، كدليل على التعاقد ويأخذن الأسلحة».

المنشدة : المجد، المجد لكم، أيها المحاربون الذين يحررون النساء!

الجوقة : المجد لكم، يا من تحسون آلام اللواتي يختبئن للوضع،

ويلقين بمجوهراتهن،

ليشاركن في القتال.

«عند هذه الكلمات تتجمع الصبايا بنظـام، متهيئـات للسير، ملتفتات نحو المرأة المتوحشة التي يبدو عليها التـردد، وهـي

معلقة البصر بصورة العقاب التي عادت إلى الشاشة. لــم يعــد الرجلان المتنكران يحولان بينها وبين الصورة. لقــد انــسحبا خلسةً بمحاذاة الجدار».

العُقاب : اذهبي، التقطي قمل الشعب بأصابعك الحانية.. واذهبي فكدِّري نومه من قبل حارسه.

المرأة المتوحشة: «تتقدم المجموعة»

ساذَجةٌ أسلحتنا.. ولكنها مخيفة، مخيفةٌ كالشعب الذي يندفع وقد أدركته النبوءة، نعم، سنغسل الهزيمة الطويلة.. وأرضنا التي عادت إلى الطفولة ستشتعل فيها حيويتها القديمة من جديد.

المنشدة : في كل مكان من وطننا تنتزَع الأرض وتُحرَّر.

حتى الجثث

تَسحَب الأرضَ إليها لتجعل منها دثاراً لها.

وعما قريب..

لن يجد أولئك الذين يظنون أنفسهم أحياء

أولئك الذين يعيشون على ظهورنا،

لن يجدوا مكاناً يرقدون فيه.

«تأخذ المجموعة مكانها رويداً رويداً على السطح الدائر. وتبدأ المسير، وهي ما تزال تنشد نشيد القتال».

المنشدة : «مطوية تحت عبء بندقيتها».

نحن اللواتي نتلقى في المقدمة

كل الضربات من أي مكان جاءت.

هذه الحملة القاتلة تثقل علينا، ويتحتم علينا

أن نحيا.

إننا نحمل معنا موكب القَتَلَة الطويل.

كحربة تضطرب في صدورنا.

«طلقات نارية تشير إلى أن القتال قريب جداً.

يندفع رجال على المسرح يثبت من شاراتهم أنهم من جنود جيش التحرير الوطني. الرجال والنساء يتعانقون، وهم يتبادلون شتائم الدعابة والمزاح».

المنشد : «رجل»

سلامٌ عليك، أيها الجيش الصغير، الذي يضم العيون الكبيرة السوداء.

المنشدة : «صبية»

سلامٌ عليكم، أيها السادة قطاع الطرق

أراكم تمثلون دور الدرك؟

«فترة. ينتهي الترحيب. يعود الفريقان إلى السير كل مجموعة على حدة، يصبح صوت الجوقة من هنا وهناك رزيناً وقوراً».

جوقة الصبايا: لا تأملوا بعد اليوم في وقفة أجمل من هذه على الطريق. بأعينكم أنتم سيرى الوطن النور.

دَرِّبونا على أن نميز أهدافنا بين الكواكب، وفي الأدغال، حيث يبلغ وهج الصيف ذروته.

المنشد : «الرجل»

هل تُرِدْنَ الانضمام إلينا؟

المنشدة : «الفتاة»

في ساعةِ الفِداء

جمعتنا الأمة بشجاعة

«ينضم الفريقان بسرعة، ويبدأون السير».

الجوقة : «الرجال والنساء على التوالي».

وأخيراً، فإن العمالقة القادمين من الغابات قد ألقوا في النارِ السُّتُر المزيفة.

«يجتازون المسرح، وينخفض النور. نسمع طلقات نارية، تقترب أكثر فأكثر.

صيحات وتنهدات، صوت يردد من وقت لآخر كحكم قاطع هذه الجملة البسيطة:

هذه هي الحرب.

تعيدها الجوقة. وأخيراً، يخلو المسرح. فترة. قرعات صنج مديدة. حسن ومصطفى اللذان عادا إلى التنكر لا يزالان يذرعان المسرح يمثلان السير في الصحراء».

مصطفى: الشيء نفسه يتكرر دائماً. هؤلاء الثرثارون الدائمون ما ينفكوُّن يرددون بأن الحرب قد انتهت. يحكون ذلك في المقاهي.

حسن : لا أهمية لذلك. لقد رأى شعبنا الكثير منهم. إنه يعرف بأن حرباً، كحربنا هذه، ما دامت لم تتوقف في يوم من الأيام فإنها لن تنتهي أبداً.

مصطفى: في هذه الصحراء حيث لا نملك شيئاً، حيث لا ملجأ يحمينا، حيث لا تساوي أساليب القتال التي نستخدمها شيئاً، ذلك لأننا نضطر للقتال في أرض مكشوفة عارية، وينتشر جيشٌ في وَضَح النهار أمام جيش آخر.. في هذه الصحراء التي لا نساوي فيها شيئاً،

والتي لم تقوَ أية إمبراطورية على أن تترك فيها أثراً..
لن تستطيع أية قوةٍ أن ترهبنا بعد الآن، ولا أن تبذر فينا الفساد.

إن من تحمَّل قنابل شمس الظهيرة لم يعد يخشى حملة البَعُوض.

حسن : أَليس من أخبار أخرى؟

مصطفى: لا جديد. لقد شاهد بعضُ البدو الرحَّل في الغرب، قرب الحدود، امرأة محجبةً بالسواد، مع نساءٍ أُخَر. كنَّ يتبعن قافلة. إني أعيد عليك ما سمعت، دون أن أضيف شيئاً.

حسن : وهذه القافلة.. هل اجتازت الحدود؟

مصطفى: من المحتمل.

حسن : لقد أخطأنا إذ تركناهن دون حماية. إن المغرب الكبير لم يتحقق بعد.

مصطفى: تربطنا مع السلطات معاهدة، لا يستطيع جيش السلطان تجاهلها.

حسن : لا تنسَ أن عبد القادر(١) قد غُدِرَ به، وسُلِّمَ عند الحدود.

---

(١) إشارة إلى الأمير عبد القادر الجزائري. «المترجمة».

مصطفى: إن سلطان اليوم غيره بالأمس.

حسن : ليس عليك إلا أن تقرأ الجرائد.

مصطفى: لست من الذين يقرأون بين السطور.

«فترة. يغادر حسن ومصطفى المسرح، ينعكس النور من جديد على واجهة الجدار التي تقوم مقام الشاشة حيث يحوم العقاب، ثم على قافلة من النساء يقودها محارب قديم، تُعرَف بينهن المرأة المتوحشة من خمارها الأسود».

المحارب القديم: «عيناه مثبتتان على الشاشة». ابتعد أيها العقاب. لسنا شيئاً بالنسبة لك، ولستَ شيئاً بالنسبة لنا..

أيها العُقاب، دع عنك ملاحقتنا..

ليس فينا من هو مُعَدٌّ للموت..

ابتعد، أيها العقاب.

«يحوِّم العقاب، يستمر في التحويم على الشاشة».

المحارب القديم: «بنفس الدور، وهو يشير إلى الصبايا».

لتُسْفِرْ كل الصبايا عن وجوههن.. أنظر أيها الطائر اللعين، أنظر إن حسان الحرب هؤلاء مخصصات للجيش الملكي. ينبغي أن نحسن مكافأة رجالنا على إخلاصهم في هذه الأوقات العصيبة. أما هذه التي هي

أشدهن تعقيداً «يشير إلى المرأة المتوحشة». فدعوا لي أمرها. لقد روَّضتُ فيما مضى مهاراتٍ أشد شماساً منها، لا، ليس في قافلتي شيء لك أيها العقاب، أيها الطائر اللعين، ابتعد عن طريقي..

«ينفجر المحارب في الضحك، مرتاحاً إلى دعابته الفظة المبتذلة، أما العُقاب فيظل يحوم، في حين يتضاءل النور، وتُخيم القافلة لقضاء الليلة. وتحت جنح الغسق يقترب حسن ومصطفى بصمت. بينما يراقب حسن المحارب، وفي الوقت المناسب يطعنه بهدوء، دون أن يترك له وقتاً للتنهد. يتقدم مصطفى نحو المرأة المتوحشة الممددة على الأرض. تطلق صرخة قوية لدى رؤيته. تستيقظ الصبايا منتفضات، ويتبعثرن وهن يدسن على جسد المحارب، ينزع حسن قِناعَهُ ويعمل جاهداً لتهدئتهن، يجرهن نحو الكواليس. يبقى مصطفى وحده مع المرأة المتوحشة التي يبدو عليها عدم الشعور بوجوده، حتى بعد أن ينزع قناعه عنه، تثبت بصرها محدقة بواجهة الجدار التي تضاء فجأةً ويظهر عليها العُقَاب بحجم كبير. العقاب يصفق بأجنحته بشدة أمام هذه الخلوة التي لا يستطيع التدخل فيها».

المرأة المتوحشة: أخضر، أخضر! أنقذني، اخطفني..

لا أريد أن أقع في قبضة السلطان.

الذي خان جدُّه جدَّنا.

نعم، تذكَّرْ عبد القادر الذي غَدَر به، بعد سبعة عشر عاماً من الكفاح.

ذلك السلطانُ الذي أصابته الغيرة من انتصاراتنا نعم، إنه السلطان القديم

الذي يُطلق وريثُهُ اليوم كلابه في أعقابنا.

إنه يستغل حدادنا، كما يستغل فرصة الحرب ليتاجر بصحرائنا، على رفات شهدائنا بعد أن سلَّم للعدو أصابع يدنا الخمس، نعم قادتنا الخمسة الذين حبسوا بخطئه. نعم تذكر ذلك يا أخضر!

مصطفى: «على انفراد» ها أنذا أسمع ما يجلو ذاكرتي. إنها تنادي الأخضر.

أما أنا، فلا اسم لي، لقد اختفيت حقاً.

ليس عليَّ إلا أن أعود إلى التنكر.

ولكي لا يستمر شيء مما كان،

لكي لا يعرف المحراب غير زيارة الأفاعي.

يجب أن ألاحق امرأة أعز أصدقائي.

وعليَّ أنا الطريد أن أُسْمِعَ صوتي دائماً

عليَّ أن أُدنسَّ آثار الصديق

أن أزعج «الهاربة»، وحتى لكي أحميها، عليَّ أن ألبس القناع.

«ظلام. نور. حسن ومصطفى والمرأة المتوحشة والجوقة يبحثون جميعاً عن طريق في الصحراء. خلال سيرهم الطويل تسقط الصبايا منهكات. تبقى أحداهن واقفة. إنها هي التي تمثل دور المنشدة.

لقد أُعِدَّت للشعور الكامل بالمأساة. إنها تقص قبل أن تتهاوى بدورها في مقدمة المسرح قصة الثلاثي التائه في الصحراء، حسن، ومصطفى، والمرأة المتوحشة الذين، أثناء حديثها، يتصرفون وفقاً لما تكشفه وبتناسق تام، لأن حركاتهم يجب أن تبقى صامتة لتأخذ طابعاً بارزاً».

المنشدة : إنهم يسيرون بعد الاختطاف

يسيرون، ثلاثتهم معاً.

يطاردهم الجيش.

«طلقات نارية»

بلا ماء، بلا خبز، بلا ذخيرة..

يواصلون السير حتى يغيبوا عن الرشد.

وإن هذيان الصديقين

بحضور المرأة المتوحشة

سيثيرُ المنافسة بينهما.

«تفقد المرأة المتوحشة خمارها. لا تجد لديها القوة لاستعادته.
يتجلى عندئذ جمالها على أتمه».

تقول نظراتهما: ما أجمل الموت

في غيبوبةٍ أخرى. يا لها من غيبوبةٍ معزّيةٍ!

«يتعرفان على نجمة»

ما أجمل الانطفاءَ بين ذراعي

المرأة!

أما هي، فإنها تبدو أشد توحشاً من أي وقت مضى،
وها هي ذي تمشي على انفراد، في وَهج الشمس.

ملأى بالغطرسة والتحدي.

وفي الظلام مشيرة إلى رحابة ميدانهم المضلع

المزروع بالنجوم..

نعم، إنها تمشي، ولكن على انفراد، وتدور المأساة على غير علم منها.

«تمر فترة. يُرى حسن ومصطفى يتوقفان وجهاً لوجه».

المنشدة : «تسرع في إيقاعها».

بنفس النظرة، يصعق كل من الصديقين الآخر.

لقد أدرك كلٌّ منهما أن أحدهما يجب أن يسقط،

ويجمدان على الرمال كصخرتين.

ولكن هذا التحدي ليس سوى وداع

واعتراف صداقة أظلمت وهي في أوجها

ثم بين الدموع، نعم بين الدموع

أطلقا النار في وقت واحد..

بين الدموع..

«يطلق حسن ومصطفى النار كل منهما على الآخر. يسقط حسن. لم تدرك المرأة المتوحشة، التي كانت تسير على انفراد، شيئاً من هذا المشهد الذي مر كلمحة البرق. وحين ينبهها صوت الطلقات النارية تلتفت وتهوي أمام جسد حسن».

المنشدة : لقد صرعت بشكل لا يصدق كأنما بصدى دويّ الانفجار.

لقد انحنت المرأة المتوحشة.

لقد جثت على ركبتيها.

«فترة. يعالج مصطفى مسدسه الفارغ بحنق شديد. ثم يتناول المسدس الذي سقط من يد حسن فيرميه أرضاً بنفس الحنق الشديد. لأنه لم تبق فيهما أية رصاصة. يتأمل مصطفى طويلاً الجسدين والسلاحين المطروحين على الرمال.. بينما تعود صورة العُقاب إلى الظهور في حجم ضخم».

المنشدة : إنها ساعةُ العُقاب

إن الذي بقي على قيد الحياة لن يستطيع شيئاً.

لن يستطيع حتى أن يدير

أسلحةَ الموت إلى صدره.

يا لَلْسخرية التي تنتظر

من ضَيَّع رصاصةً

لقتل خائن! بينما كان يكفيه أن يجدعَ أنفه.

هذا التلميذ، هذا المبتدئ ترك على ظهره قتيلين.

حينما انتقم لصديق صرع صديقاً آخر، ولما ينته بعد.

الجوقة : إنها ساعةُ العُقَاب

المنشدة : في كل حرب يُقتل الإخوة.

كل حرب حقيقية تعيد إلى ذاكرتنا

أكلة لحوم البشر الذين يتزوجون محارمهم.

الجوقة : بلى، إن كل حرب تشبه حرب الإغريق من أجل هيلين.

إن أقصر طريق بين الحب والموت هي الحرب.

المنشدة : ومهما عدنا بعيداً إلى الوراء، لا نرى إلا امرأة متوحشةً، دأبها افتراسُ الرجال، بلا حقد، ولا رحمة، ويظل اختيارها بين الحياة والموت غامضاً.

إنها ترجع بنسبها إلى قبيلة النسر، والعُقاب.

«قرعات صنج. يضعف النور. تُرى مجموعة من الشيوخ تتجه إلى مقدمة المسرح حاملةً لافتةً يمكن أن يُقرأ عليها بأحرف بارزة:

«اللجنة المركزية للأجداد».

ظلام..

جوقة الأجداد: «في العتمة»

نحن الأجداد، نحن الذين نعيش في الماضي.

نحن أقوى من كل الحشود.

إن عددنا يزداد بلا انقطاع.

ونحن ما نزال بانتظار المزيد من المَدَد، لكي نتمكن من أن نفرضَ ثقلنا على هذا الكوكب، ونملي عليه شرائعنا.

نحن اللجنة المركزية للأجداد

يمرُّ ببالنا من حين لآخر أن نتحدث إلى الأرض، ونقول لأولانا: تشجعوا!

اتخذوا لكم مكاناً في مراكب الموت،

تعالوا، التحقوا بدوركم (بأرمادا) الأجداد،

إنها على وَشْكِ إن تستولي على الزمان، والمكان..

ولكنَّ الأحياء لا يعرفون كيف يحيون، ولا كيف يموتون.

إنهم لا يفكرون أبداً بالأجداد

المائلين أبداً فوق رؤوسهم.

على أن من يصغي جيداً لا يفوته أن يسمع.

إنَّ من لا يخشى النظر إلى الفراغ سيرى كيف تكبر النقطةُ السوداء التي تلازمه.

لقد اخترنا العُقاب

اخترناه ذكراً موثوقاً.

ليحمل رسائلنا..

نعم، اخترنا العُقَاب. إن مجرد مروره هو حكم بالإعدام. إنه يحلق فوق حشرجتكم ماضياً في تأملاته البعيدة التي لا تعرف الهدوء.

المنشدة : «في العتمة»

إنها ساعةُ العُقَاب.

«عند هذه الكلمات، ترتسم على الشاشة، تحت صورة العُقَاب، صورة صف من جنود العدو الذين يتفحصون الآفاق، قرعات صنج مديدة».

المنشدة : لدى رؤية الجنود، والُعَقاب الذي يحوِّم.

يعود إلى مصطفى صفاء ذهنه

إنه يتذكر أن حسن كان يملك مديةً.

فيبحثُ عنها في جيوب ضحيته.

ولكن، ماذا يستطيع السلاح الأبيض هنا؟

إنه لا يستطيع الرد على رشاشات فوج كامل

سينتشر حولنا في نصف دائرة.

ليس من وسيلة للهرب أو المراوغة.

في هذا الفضاء الشاسع من النور والرمال

لم يبق إلا هجوم اليأس

ولكن مصطفى لا يستطيع أن يجازف بمصير المرأة التي يحبها.

إنه لا يستطيع أن يتركها وشأنها

لا يستطيع، إيقاظها، وانتزاعها من العُقاب

لا يستطيع الدفاع عنها أمام المهاجمين

كما لا يستطيع أن يذعن لفكرة القتل

«ظلمة على الشاشة. ينتقل النور. يقترب مصطفى، والمدية في يده، من المرأة المتوحشة التي تقبع دون حراك. ولكن يبقى عاجزاً، عن اتخاذ الخطوة الحاسمة».

مصطفى: ها هي ذي الوردة التي أُخذ بخناقها تنحني على غصنها، في نهاية قدرها.. هل يجب أن أدع الوردة لعواصف الرمال، لقبلة العُقاب؟ أم يجب عليَّ أن أذبح الوردة، أو أرضى بتدنيسها؟ أيتها المرأة المتوحشة! أن أسفح قليلاً من دمك. تلك هي الجريمة الوحيدة التي أنا محروم منها.

لم أملك قط القدرة الكافية على التكتم أمام ظهور المنافسة المفاجئة. ولن أملك القدرة الكافية على إخفاء سِرِّي إذا ما قضيت عليك.

المنشدة : «تبدو وكأنها اختارت فكرة التضحية»

إنها لم تنل قصاصاً.

فاشتهت قسوتك، التي ستمر دون قصاص.

دعها تتحطم عليك.

مصطفى: «يتخبط في فكرة ضرورة القتل»

لعلَّني فريسة وسواس!

ولَعَلها تنتظر مني ضربة الخلاص!

أي مجرم لا يخشى جريمةً كهذه من دون مذنب؟ أأقوى هنا على تشويه هذا الوجه الأنثوي، هذه الفتنة القاهرة؟

المنشدة : تَعْساً للفاتح، ولكل فتوحاته! تلك هي المرأة المتعبِة التي لا تُقْهر.. ولن يكون لحدادها نهاية..

«تتوضح صور الجنود على الشاشة، على حساب صورة العُقَاب الذي يضطرب أمام هذا التطفل على مملكته، على مشرحة الجثث المجهولة التي هي صحراؤه. لدى اقتراب الجنود، تنهض الصبايا اللواتي سقطن أثناء المسير بصعوبة، يمشين مترنحات ويلحقن بالمنشدة.

هنا تطغى الأسطورة على التاريخ.

إن الجوقة التي أُعيد تشكيلها في هذا البُحَران الجماعي ستصبح الشخصية الرئيسية في المأساة، لها الكلمة الأخيرة:

لا شيء يخص الفرد. يجب أن يتقاسم مع غيره كل شيء في الغموض الأرضي، قِناعه، وسرَّه، وأَهواءه. حتى ولو كان ذلك في مقابل حياته المقبلة. إن هذا أساسي لخاتمة المأساة حيث تتجلى الأسطورة أشد صدقاً، وأكثر سخاء، وأشد وضوحاً من التاريخ. إنه ثأر الكلمة القديمة، ثأر الشعر المسرحي على المسرح.

الجوقة التي تقف مواجهةَ الشاشة تسيطر على الوضع لتقدم للعالم الحديث القناعة التي فَقَدَ مَذَاقها».

الجوقة : «ترثي المرأة المتوحشة».

لنبكِ الفريسة التي تأخرت

معرَّضة لكثير من الجوارح

لقد انحط بسببها أكثر من عُقاب واحد من أفقه ولم يعد يحس أجنحته.

المنشدة : لنبكِ الفريسة التي تأخرت معرَّضة لكثير من الطيور الجوارح.

الجوقة : لنبكِ المجرم الذي لم يعد يعرف كيف يمسك سلاحه.

ليس له عند العشيقة إلا أمر غير متوقع، ولكنه لا يستطيع تنفيذه كما لا يستطيع الحياة بعد ذلك.

المنشدة : لنبكِ المجرم الذي لم يعد يعرف كيف يمسك سلاحه.

إن دموعنا لتبدو قاسيةً بالنسبة إليه خاصة.

إن الاحتقار المستعر للعذارى يبهَظُ ذراعه المترددة.

الجوقة : ولكنكِ أنتِ، أيتها المرأة المتوحشة. لقد فوجئتِ أثناء فراركِ، وأُعدتِ إلى عذابك. لقد سلبكِ حُبُّ الرجال الذين كانوا يرفعونكِ عالياً أثناء قتالهم.

والذين لن تخفَّ أذرُعُهم لانتشالك من سقطتك.

المنشدة : لقد سلبكِ حب الرجال الذين كانوا يرفعونك عالياً في معاركهم. والذين لن تخِفَّ أذرعهم لانتشالك من سقطتك.

مصطفى: كالغازي يرسف في أغلال جريمته أتجنب، وأخشى هذه الفريسة التي تفر من البنان.

والتي أُطفئت في رماد الرجل الذي سبقني..

المنشدة : كالغازي يرسف في أغلال جريمته..

«صورة العُقاب تسيطر على المكان، إنه يسرع في طيرانه كأنه يريد أن يسبق الجنود».

الجوقة : «بقلق» العُقَاب، العُقاب الأسود والأبيض..

مصطفى: «يهز المرأة المتوحشة».

انهضي.. إن العُقاب يحوِّم فوقنا.

ولكنكِ لم تصبحي تحت رحمته بعد.

إن قلبك يضج. هذه ساعةُ العُقاب، ساعةُ النضال من أجل الحياة.

إني أسمع دمك يدوّي كعاصفة حَيْرى، قريبة من الذعر.

وها أنتِ مجروحة في الصميم، في متناول قبضة غاصبٍ جديد.

الجوقة : «برعب»

ها هو ذا الطائر الجارح الغَيُور. إنه يخطُّ حولنا دائرة الثارات.

المنشدة : «متوسلةً إلى الجوقة».

يا حمائمَ الشؤم والنحس!

اهربن فعين العُقَاب تكفي لتمزيقكن.

اهربن يا حمائمَ الشؤم،

الطليقات، الجريحات،

اهربن من الطقوس البغيضة للطائر الأرمل،

لا تنتظرن أن يختار.. ذلك العُقاب الحاقد.

«ينطفئ النور. ظلام دامس».

المنشدة : «بصوت فاجع»

العُقَاب، العُقَاب

العُقَاب والعشيق يتنازعان الميتة.

الجوقة : «في العتمة»

تشجَّعْنَ! إننا ندخل في الملحمة الضارية،

في جَلبَة المنقار والمدية

اللذين يصطرعان.. اللذين يصطدمان..

لقد عاد الطائر الهائج أخيراً إلى التحليق..

إنه يُمطر قطراتٍ من الدم..

إنه يُمطر قطَرَات من الدم..

المنشدة : «في الظلمة دائماً».

لم يعد للرجل المقنَّع من شيء. لقد فقد حتى وجهه.

ليس عليه بعد اليوم أن يراقب العدوَّ الذي يتقدم.

وليس علينا نحن أيضاً إلاَّ أن نُطْلِق رصاصاتنا الأخيرة.

«وابلُ من الرصاص يُسمع دويُّه في الظلام.

صيحات حرب. يعود النور تدريجياً إلى المسرح، حيث يصوِّب الجنود نيرانهم على الجوقة المطوَّقة. تحت القناع الدامي، وقد أعمته ضَرَبات العُقاب، يتلمس طريقه باتجاه المرأة المتوحشة التي يتسلَّى الجنود في التحقق من موتها بركلات من أقدامهم.

ضابط يمسك بيديه قيداً مفتوحاً – على سبيل الدعاية - في طريق مصطفى الذي يمشي ويداه ممدودتان إلى الأمام. يطبق القيد على معصميه في اللحظة التي يريد فيها لمس جسد المرأة المتوحشة للمرة الأخيرة. يحدث كل ذلك في جو من البرود العام. ثم يعود العُقَاب إلى الظهور للمرة الأخيرة على المسرح. يضرب بجناحيه بينما يغادر الفوج جنوداً وأسرى، خشبة المسرح، تاركين الجثتين. ظلام مطبق. قرعات صنج. يُسمع صوت الجوقة من بعيد»

الجوقة : لا.. لن يموت..

إنه من أولئك الذين يقضون معظم أيام حياتهم في السجن، أو المصح..

ليست هذه هي المرة الأولى.

المنشدة : يحدُثُ دائماً أن تفرغَ الأسلحةُ من ذخيرتها.

لقد تكلم الدم أكثر مما ينبغي.

لم تعد العقبانُ تكفي لرفع الجثث

إن الأرض المسمَّدة تطالب بمزيد من الحراثة.

الجوقة : لا.. لن نموت هذه المرة، لن نموت هذه المرة. لم تعد المرأة المتوحشة موجودة. ولكن الحرب تجدها..

والحرب بحاجة إلينا.

المنشدة : الأجداد في ارتياح

منذ أن حللنا رموز رسالتهم.

منذ أن صهرنا أغلالهم؛

وعشنا حلمهم،

وسهرنا على نومهم.

ليس للأشباح أن ترفع رؤوسها بعد الآن..

الجوقة : الأجداد في ارتياح.

(انتهــت)

الفهرس

الصفحة

الطبعة الثانية / ٢٠١١م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ١٠٠ ل.س أو ما يعادلها